كشف الغيوم

عن

القضاء والقدر

إعداد

سعيد إسماعيل

١٤١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن مسألة القضاء والقدر بالنسبة للمسلم المؤمن ليست مشكلة على الإطلاق. وذلك لأن المؤمن يعتقد جازما بأن الله خلق كل شيء وهو بكل شيء عليم حتى قبل حدوثه، إذ يقول تعالى: {بديع السماوات والأرض، أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم.}(١) والمؤمن أيضا يعتقد جازما بأن الله فعال لما يريد، وأن كل شيء يجري تحت سيطرة الله الكاملة ولا يحدث شيء في الكون بدون إذنه ومشيئته. فالله سبحانه وتعال يقول: {إن ربك فعال لما يريد}.(٢) و{وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين}.(٣)

والمؤمن يعتقد بأن الله قد ميز المخلوقات المكلفة بإمكانات تجعلها مسؤولة عن ما تفعله في حدود هذه الإمكانات ومنها حرية الاختيار. فالله سبحانه وتعالى يقول: {ونفس وما سواها فألهمها فجورها

---

(١) الأنعام: ١٠١.
(٢) هود: ١٠٧.
(٣) التكوير: ٢٩.

وتقواها}(٤) ويقول تعالى: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}.(٥)

ومع إيمان المسلم بكل ما سبق فإنه يعتقد جازما بأن الله لا يظلم أحدا، حيث يقول تعالى: {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}.(٦)

وبعبارة أخرى فإن المسلم المؤمن يكفيه أن يعتقد جازما صدق ما ورد في هذه الآيات من حقائق، فلا يحتاج بعدها إلى المزيد. ولكن هناك حاجة إلى مواجهة تيار العقلانية المحضة التي أصبحت سائدة بين أوساط المسلمين وغير المسلمين.

ولعل نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوض في القدر شبيه بالنهي عن كتابة أقواله صلى الله عليه وسلم، حيث كان ضروريا في مرحلة من المراحل، حتى لا يختلط تدوين القرآن الكريم بتدوين الحديث النبوي. ثم رأى العلماء عبر العصور المختلفة بعد انقطاع الوحي أن كتابته ضروري للحفاظ على الدين. ومما يؤكد هذه الحقيقة أن فحول العلماء في العصور المختلفة قد كتبوا في القضاء والقدر، لما رأوه من الضرورة الملحة. وذلك تعزيزا لإيمان المؤمنين ودفعا لخطر جهود المشككين في الإسلام.

فالكتيب إنما يهدف فقط إلى تزويد القارئ ببعض الأدلة العقلية ليقرب إلى الأذهان مفهوم القضاء والقدر في الإسلام، لمن يحتاج إلى ذلك من المخلوقات المكلفة. فالقضاء والقدر مسألة جوهرية مرتبطة بالتكليف، يحسن عدم تجاوزها عند توفر المعرفة اللازمة. وتنحصر

---

(٤) الشمس: ٧-٨.

(٥) الكهف: ٢٩.

(٦) فصلت: ٤٦؛ وانظر آل عمران: ١٨٢؛ الأنفال: ٥١؛ الحج: ١٠.

مهمة الكتيب -على وجه الخصوص- في توضيح كيف أن العلم المطلق لله سبحانه وتعالى وقدرته المطلقة المهيمنة على كل ما يجري في الكون لا يتعارضان مع محاسبة العبد على بعض قراراته. فكثيرا ما يحلو للإنسان التذرع بالقضاء والقدر لينغمس في شهواته وليقصر في واجباته.

ولعل السبب الرئيس في صعوبة استيعاب مفهوم القضاء والقدر، عند كثير من الناس، تعود إلى صعوبة التحرر من الصفات البشرية، وبالتالي صعوبة التفريق بين الصفات الربانية المتفردة في حقيقتها وكيفيتها والمطلقة، والصفات البشرية القاصرة والمقيدة. وهذا التفريق ضروري. فصفة الجبار والمتكبر -مثلا- هي صفات كمال لله سبحانه وتعالى، بينما هي صفات نقص في المخلوقات. ومن جهة أخرى فإن صفة الذكي واللبيب والعاقل صفات حميدة للإنسان، بينما هي صفات قاصرة لا تليق بالخالق.(٧) وهذه الصفات الحميدة للإنسان لا تليق بالخالق لسبب رئيس هو عدم ورودها في الكتاب والسنة من بين صفات الله وأسمائه جل وعلا، ولأن العرف قد جرى على استعمالها للمخلوق فقط. فهي ناقصة بنقص المخلوق.

والكتيب خلاصة قراءات طوال سنين عديدة لكتابات متخصصة وإشارات غير متخصصة ومناقشات مع بعض الحائرين. وقد استفاد الكاتب من كل ما قرأ بشكل أو آخر، ولاسيما كتابات ابن تيمية وابن القيم وجميع المصادر التي وردت في قائمة المراجع.

وللوصول إلى النتائج المثبتة هنا قام الباحث بما يلي:

١ - استعراض جميع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ذات العلاقة بمشتقات المفردات الرئيسة مثل: القضاء، والقدر، والمشيئة، والهدى،

---

(٧) ابن حيدرة ص ٤١.

والضلال.

٢ - مراجعة مدلولات هذه النصوص في كتب التفسير وشروح الأحاديث ومعاجم اللغة العربية.

٣- تحليل النصوص المتصلة بموضوع البحث في ضوء الفهم العام لعلماء السلف المعتبرين أمثال ابن تيمية وابن القيم، مع الاستفادة مما استجد من معرفة وحقائق كونية ذات صلة بالموضوع.

٤ - الحرص على توضيح المدلولات الرئيسة بضرب الأمثلة على المستوى البشري، ليزول اللبس ويتضح المقصود، ولله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء سبحانه. وهذا الأسلوب في عرض الحقائق الربانية ليس للباحث فيه فضل يذكر فهو أسلوب استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصور فرح الله سبحانه وتعالى بتوبة عبده.(٨)

وما توفيقي إلا بالله العظيم الحليم، له الحمد والشكر من قبل ومن بعد، ثم جزى الله خيرا كل من أسهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في إنجاز هذا العمل المتواضع، ولاسيما أولئك الذين قرأوا المسودة بعناية وقدموا نصائحهم بإخلاص. وأسأل الله أن يجعل جهودهم وهذا العمل خالصا لوجهه تعالى، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا يوم العرض الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

سعيد إسماعيل
ص. ب. ٤٤٠٧، المدينة المنورة
الصياغة الأخيرة في ١/٩/١٤١٧هـ

(٨) انظر نص الحديث وتوثيقه في مبحث المحاسبة.

الفصل الأول

ما القضاء والقدر؟

سيتم في هذا الفصل الحديث عن مصدر الكلمتين في الكتاب والسنة، ومعنى القضاء، ومعنى القدر، والعلاقة بين الكلمتين.

مصدر الكلمتين:

لقد وردت كلمتا "القضاء" و" القدر" أو مشتقاتها في مواضع متفرقة من القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية.

فكلمة "القضاء" وردت بالصياغة نفسها في بعض الأحاديث النبوية، وإن كانت معدودة، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يرد القضاء إلا الدعاء"،(٩) وقوله: "فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين"(١٠) وقوله: "تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء."(١١)

أما كلمة "القدر" فقد جاءت في نصوص قرآنية، وأحاديث نبوية عديدة. ومن هذه النصوص المحددة ما ورد في إجابة النبي صلى الله

---

(٩) الترمذي: القدر، ما جاء لا يرد القدر؛ وقد اعتبره حسنا غريبا؛ وصحح ابن حبان والحاكم إسناده وانظر المباركفوري ج٦: ٢٩٠.

(١٠) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي ونسبه إلى النسائي والترمذي وورد في الترمذي بلفظ "القدر" في أبواب القدر؛ وانظر "إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له." أحمد: ٣: ١١٧، ١٨٤.

(١١) البخاري: القدر، من تعوذ.

عليه وسلم لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان، حيث أجاب النبي صلى الله عليه وسلم: "أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره."[١٢]

وفيما يلي من المباحث سيتم الحديث عن مدلول الكلمتين، في ضوء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي وردت فيها كلمة "القضاء" و"القدر" أو مشتقاتها ومعاجم اللغة العربية.

القضاء:

يبدو أن كلمة "القضاء" ذات شعب متعددة. فهناك المدلول العام للكلمة ومشتقاتها، وعلاقة هذا المدلول بالنظم التلقائية، وعلاقة هذا المدلول بقدرة الله المطلقة في الخلق وفي تدبير شؤون الكون وفي الهيمنة التامة عليها من جهة، وفعل العبد الذي يحاسب عليه من جهة أخرى.

المدلول العام:

لقد وردت كلمة "القضاء" في صيغ زمانية مختلفة، في القرآن الكريم في عدد من المواضع، إذ وردت بصيغة المضارع والماضي والأمر؛ ويمكن حصر مدلولاتها فيما يلي:

١ - الحكم أو الأمر الحتمي التنفيذ أو النتيجة، ومثاله: {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}.[١٣]

---

(١٢) مسلم: الإيمان، بيان الإيمان.

(١٣) البقرة: ١١٧؛ وانظر: فصلت: ١٢.

٢ - الأمر أو الشيء الذي تم تنفيذه، ومثاله: {هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا مسمى.}(١٤) ومثاله: { فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله}.(١٥)

٣ - بمعنى انتهى أو جعله ينتهي، ومثاله: { فمنهم من قضى نحبه}(١٦) ومثاله أيضا: {فوكزه موسى فقضى عليه} وقوله تعالى: {ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون}.(١٧)

٤ - الحكم أو الأمر الذي لا خيار في تنفيذه، أي لا يمكن التهاون فيه مطلقا، ومثاله: {وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه}(١٨) فهذا أمر لا يحتمل المخالفة، إذ يقول سبحانه وتعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.}.(١٩)

٥ - قد يلحق بها "قضى إلي" وتعني أعلم في مثل قوله تعالى: {وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا.}(٢٠) وفي قوله تعالى: {وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع}.(٢١)

---

(١٤) الأنعام: ٢.

(١٥) القصص: ٢٨.وانظر: البقرة: ٢٠٠؛ الأحزاب: ٣٧؛ يوسف: ٦٨؛ إبراهيم: ٢٢.

(١٦) الأحزاب: ٢٣.

(١٧) القصص: ١٥؛ الأنعام: ٨؛ وانظر يونس: ٧١.

(١٨) الإسراء: ٢٣.

(١٩) النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢٠) الإسراء: ٤، وانظر ابن كثير، والطبري، والشنقيطي.

(٢١) الحجر: ١٥.

ولم تخرج مدلولاتها في الأحاديث النبوية عن هذه المدلولات، ومثاله قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي.".(٢٢) ومثاله أيضا ما سبق إيراده عند الحديث عن مصدر الكلمتين: القضاء والقدر.

ولم تخرج المدلولات الواردة في معاجم اللغة العربية عن هذه المدلولات أيضا.(٢٣)

ويلاحظ من المدلولات السابقة عموما أن كلمة "القضاء" تنحصر في معنى واحد وهو **الحكم حتمي التنفيذ**، أو السبب ذو النتيجة الحتمية أو شبه الحتمية أو أوصله إلى مقره كما في إيصال الخبر إلى مستقبله.

ويميز ابن تيمية وتلميذه ابن القيم(٢٤) بين مدلولين لكلمة القضاء ومرادفاتها، هما:

١- الأمر الشرعي، كما في قوله تعالى: {وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه}(٢٥) وهذا المعنى أيضا يأتي في الكلمات الأخرى التي يعبر بها عن القضاء أو الأمر الكوني.(٢٦) وفي إمكان العبد مخالفة الأمر الشرعي بإذن من الله. ونتيجة هذا الأمر الشرعي وإن لم تكن حتمية، فإنها شبه حتمية. وذلك لأنه أمر وإن كان في إمكان العبد مخالفته بإذن من الله، إلا إن

---

(٢٢) البخاري: بدء الخلق، ما جاء في قوله تعالى: وهو الذي يبدأ الخلق.
(٢٣) ابن منظور: باب قضى؛ أنيس: باب قضى؛ دار الشروق: باب قضى.
(٢٤) ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٨٧-١٩٠؛ ابن القيم، شفاء ص ٢٨٠-٢٨٣.
(٢٥) الإسراء: ٢٣.
(٢٦) انظر مثلا: البقرة: ١٨٥؛ الأعراف: ٢٨؛ الجمعة: ٢؛ الأنبياء: ٧٣؛ الممتحنة:٣؛ البقرة: ١٨٣.

الانصياع له شيء حتمي شرعا لكي يضمن العبد دخول الجنة. وذلك لقوله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.}(٢٧)

٢ - الأمر الكوني، كما في قوله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون}(٢٨) وقد يأتي التعبير عن القضاء الكوني بكلمات أخرى غير كلمة القضاء مثل أمر، أراد،(٢٩) بعث،(٣٠) جعل،(٣١) حكم، (٣٢) كتب،(٣٣) قدر.(٣٤) ولا يمكن للإنسان مخالفة الأمر الكوني سواء ما يأخذ منها هيئة السنن الكونية (القوانين الطبيعية) أو الأمر المباشر. ويلاحظ أن بعض هذه الكلمات ترد في بعض الآيات بمدلولات يتبادر إلى الذهن أنها تعني الجبر، ولكن هذه الآيات يجب أن تفهم في سياقاتها،(٣٥) ومن خلال الآيات التي تؤكد أن الله قد زود العبد بحرية الاختيار.(٣٦)

والأمر الكوني هو المعني به في هذا الكتيب وهو نوعان:

---

(٢٧) النساء: ٤٨، ١١٦؛ يلاحظ أن كلمة "قضى" لم ترد في أمر شرعي غير هذه.
(٢٨) النحل: ٤٠.
(٢٩) يس: ٨٢.
(٣٠) الإسراء: ٥.
(٣١) الأنبياء: ٧٣.
(٣٢) المائدة: ١.
(٣٣) الأنعام: ٥٩.
(٣٤) يونس: ٥.
(٣٥) انظر أنواع العقوبة الدنيوية لمن يبالغ في الإصرار على الضلال.
(٣٦) انظر حرية الاختيار وأدلتها. والمحمود ص ٢١٧-٢٤٣.

١ – أمر رباني مباشر حتمي النتيجة ويتمثل في قوله تعالى: {كن فيكون}.(٣٧)

٢ – أوامر ربانية كونية تتمثل في السنن الكونية التي تتألف من أسباب ونتائج حتمية يتفاعل بعضها مع بعض. ولكل سبب في السنة الكونية نتيجة حتمية. وقد أشار القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى بعضها.

ومن السنن الكونية قوله تعالى: {ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}.(٣٨) ومن السنن الكونية أن صلة الرحم تطيل العمر.(٣٩) ومن السنن الكونية المتعلقة بالإنسان واختياراته أن فسوق مترفي القوم يؤدي إلى تدميرهم، كما في قوله تعالى: {وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا.}(٤٠) والمقصود "بأمرنا" أي حدث سبب الهلاك وهو فسوق المترفين. فالسنة الكونية هنا هي الطبيعة البشرية التي تؤكد أن مترفي القوم أسبق إلى الفسوق (سبب) والأغلبية أميل إلى التقصير في واجب الأمر بالمعروف (سبب آخر) والنتيجة هي هلاك تلك الأمة. والأمثلة كثيرة في قصص الأنبياء ومترفي أقوامهم.(٤١) فهذه سنة كونية يمكن لإبليس وأعوانه محاولة تسخيرها للتسبب في هلاك بعض الأقوام. وهو يشبه قولنا في المستوى البشري: إذا أردنا فتح القفل

---

(٣٧) انظر الآيات: البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر: ٦٨.

(٣٨) الأنفال: ٥٣؛ وانظر الرعد: ١١.

(٣٩) ابن تيمية، مجموع ٨: ٥١٧.

(٤٠) الإسراء: ١٦؛ وانظر تفسير الآية مثلا في الطبري وابن كثير.

(٤١) انظر مثلا النجار. وانظر للتعليق على الآية سيد قطب، ظلال ج٤: ٢٢١٧.

أدرنا المفتاح إلى اليمين، وإذا أردنا إغلاق القفل أدرنا المفتاح إلى اليسار. فهذا سبب مع نتيجته، ويمكن لأي أحد أن يحرك السبب ليحصل على النتيجة المقررة.

النظم التي تعمل تلقائيا(الأتوماتيكية):

تقوم السنة الكونية التي تتكون من سبب ونتيجة حتمية محددة بوظيفة ذات أهمية بالغة. فالسنة الكونية هي الوحدة الأساسية لبناء أي نظام يعمل تلقائيا، يمكن إدراك أجزائه غير المحسوسة ويمكن التنبؤ بنتائج حركته المستقبلية. ويؤكد ابن تيمية حقيقة استناد الكون على السنن الكونية بعبارة أخرى، حيث يقول: "فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات."[٤٢]

ولتوضيح المقصود من هذه الحقيقة، نأخذ أبسط نظام تلقائي يتكون من وحدة واحدة، هي الساعة الأوتوماتيكية (التي تعمل تلقائيا) بدون الشد على "الزمبرك" أو "السستة" (تعشية الساعة يوميا، وبدون بطارية. هذه الساعة تعمل تلقائيا لأنها مزودة بزمبركين، عندما ينفرط أحدهما بالتدريج يشد على الآخر بالتدريج. فعملية انفراط الزمبرك الأول سبب لعملية شد الزمبرك الثاني. والاثنان يتبادلان هذه الوظيفة بطريقة تلقائية متتابعة لينتج عن ذلك نظام حركي تلقائي متكامل. وعملية الانفراط تقوم بوظائف أخرى متعددة مثل تحريك ترس عقارب الساعة، وتحريك ترس عقرب الدقائق،

---

(٤٢) ابن تيمية، مجموع ج٨: ٧٠.

وتحريك ترس عقرب الثواني، وتحريك ترس اليوم، وتحريك ترس التاريخ. وهكذا يتكون لدينا نظام تلقائي يقوم بوظائف ذاتية متعددة دون الحاجة إلى مساعدة من العوامل الخارجية.

وما دامت الساعة تعمل فأنت تدرك، بدون أن تفتح الساعة وتنظر داخلها، أن أحد الزمبركين ينفرط بالتدريج والآخر يشد عليه بالتدريج، وهذه عملية إدراك لشيء غير محسوس. وأنت تستطيع التنبؤ بأن عقرب الساعة الذي يشير إلى الساعة الواحدة سيشير بعد فترة زمنية إلى الساعة الثانية...إلخ وهذه عملية إدراك لشيء مستقبلي.

كما لاحظنا، فإن الساعة في المثال السابق ليس سوى نظام بدائي جدا. أما الكون فهو يتكون من شبكة ضخمة لا يعلم بضخامتها وأسرارها إلا الله خالقها. وقد اكتشف الإنسان كثيرا من هذه السنن الكونية بدراساته الاستقرائية، وبالتالي اكتشف بعض هذه النظم التلقائية التي تسير أجزاء محدودة من هذا الكون. وتنحصر معظم هذه الاكتشافات في عالم الجماد والنبات. أما في عالم الحيوان والإنسان والجن... فلم يصل إلى اكتشاف صور متكاملة للسنن الكونية التي تتحكم فيها، إلا في حدود التكوين العضوي للحيوانات والإنس. أما التكوين الروحي والفكري والنفسي فلا يزال يكتنفه الكثير من الغموض. وحتى في مجال العلوم الطبيعية لا يزال هناك الكثير مما لم يكتشفه الإنسان بعد.(٤٣) ومن هذه التي لم يكتشفها تلك السنن

---

(٤٣) انظرا مثلا: ابن تيمية، مجموع ج٨: ٦٨-٧٠، ١٧٢، ١٩٦، ٤٨٦، ٥٢٠-٥٤١؛ وابن القيم، شفاء ص ١٨٥-١٨٩؛ صيني، قواعد ص ٣٧-٥٩.

الكونية التي تمكن بها أحد رجال سليمان عليه السلام من نقل عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر.(٤٤)

والفرق بين قدرة خالق شبكة الأنظمة التي تسير الكون كله وتوجد الأشياء الأخرى وبين مخترع نظام الساعة الأتوماتيكية، أن خالق السنن الكونية يبقى مهيمنا على هذه الشبكة التلقائية وعلى كل شيء يمكن أن يؤثر عليها، وأما مخترع الساعة الأتوماتيكية فإنه يفقد السيطرة عليها بعد تصميمها وصناعتها. فقد تتعطل الساعة بسبب يخرج عن سيطرة صانعها، سواء أكان السب معروفا لديه أم مجهولا. والفرق الآخر أن صانع الساعة إنما تمكن من صناعة الساعة بما منحه الله من قدرات ويصنعها بتمكين من الله وفي هيئة ليست سوى هيئة من الهيئات التي خلقها الله وجعلها ممكنة.

وتؤثر السنن الكونية بعضها على نتائج بعض. فلو ألقيت بحجر إلى الأعلى بعيدا عن الجاذبية على سمت قدمك فإن النتيجة الحتمية هي سقوط الحجر على قدمك، ما لم تتدخل سنة كونية، تدفع الحجر بعيدا -أثناء سقوطه- أو تحرك قدمك من مكانه.

ولعل هذه الحقيقة تفسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا يرد القضاء إلا الدعاء."(٤٥) فالدعاء لجوء إلى الله الذي خلق السنن الكونية كلها (أسباها ونتائجها الحتمية). وبعبارة أخرى، يعد الدعاء لجوءا إلى القضاء المباشر أو الأمر الكوني المباشر المتمثل في قوله عز

(٤٤) انظر النمل: ٣٨-٤٠، وانظر قطب، في ظلال ج١٩: ص ٢٦٤١-٢٦٤٢،

(٤٥) الترمذي، القدر، ما جاء.

وجل: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}(٤٦) فمن خلق السنن الكونية قادر على تعطيل أو تغيير النتيجة الحتمية للسنة الكونية بتسخير سنة أو سنن كونية أخرى متى شاء وكيف شاء.(٤٧) ويؤكد هذه الحقيقة -أيضا- ما أخبر عنه رسول رب العالمين من قصة الثلاثة الذين دخلوا مغارة فسد مدخلها حجر كبير، لا يستطيعون تحريكه. فلجأوا إلى الله بالدعاء فانفرجت الصخرة شيئا فشيئا مع دعاء كل واحد منهم حتى تمكنوا من الخروج.(٤٨) ومن خلق هذه السنن الكونية قادر على إبطال مفعولها في أي وقت شاء وكيف شاء، كما أبطل مفعول النار التي أوقدها قوم إبراهيم عليه السلام لإحراقه، إذ يقول تعالى: { قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين.}(٤٩)

والسنن الكونية مختلفة من حيث القوة، ومتفاوتة من حيث شمولية التأثير. فالنار يمكنها تبخير الماء؛ ولكن الماء يمكنه إطفاء النار.(٥٠) وعلى الرغم من أهمية الحرارة ومصادرها فإن الله جعل الماء عصب الحياة كلها، حيث يقول تعالى: {وجعلنا من الماء كل شيء حي}.(٥١)

---

(٤٦) يس: ٨٢.

(٤٧) انظر ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٦٧-١٧٠؛ والأشقر ٨٤-٨٦.

(٤٨) انظر النووي، باب إخلاص النية. وانظر الصالح ج١: ٤٨-٥١.

(٤٩) الأنبياء: ٦٩.

(٥٠) أنظر مثلا: ابن القيم، شفاء ص ١٨٥، السعدي، العقيدة ص ١٦٧-١٧٠ صيني، قواعد ص ٣٧- ٥٨.

(٥١) الأنبياء: ٣٠.

وقد تتألف السنة الكونية من عدد من الأسباب تؤدي إلى نتيجة حتمية واحدة. وقد تتكون السنة الكونية من سلسلة من السنن الكونية الجزئية (أسباب ونتائج متتابعة) تؤدي إلى نتيجة حتمية محددة في النهاية. وبعبارة أخرى. فالنتيجة الحتمية لإحدى السنن الكونية قد تكون سببا في السنة الكونية الأخرى. ومثاله كون الأب نتيجة للجد، والأب سبب في وجود الحفيد.

ومن الأسباب جميع القرارات التي قد يتخذها المخلوق المكلف في حياته الدنيوية ولكل قرار نتيجته المحددة التي خلقها الله وأحاط بها علما. وقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون بما فيه من شبكة عظيمة محكمة ومتقنة من السنن الكونية تسيرها بطريقة تلقائية، حيث يقول تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر}(٥٢) و{وكل شيء عنده بمقدار}.(٥٣) وتتفاعل هذه السنن الكونية فينتج عن هذا التفاعل ما ندركه وما لا ندركه من الجماد، ومظاهر الحياة الأخرى مثل: النبات والحيوان والإنسان والجن والملائكة... وتتفاعل هذه السنن الكونية فتتغير أشكال الجمادات بشكل مطرد أو غير مطرد حسب إدراكنا القاصر، وتنتقل الأشياء الحية من مرحلة النمو الأولى لتنتهي بالفناء.(٥٤)

وهذا واضح من مظاهر الحياة حولنا. فالشجرة تبدأ ببذرة، يتم سقيها بالماء ووضعها في بيئة مناسبة، وتتعرض للهواء بمافيه من غازات متنوعة، وتتعرض للحرارة والأشعة المختلفة من خلال تعرضها

---

(٥٢) القمر: ٤٩؛ وانظر ابن منظور لمدلولات قدر .

(٥٣) الرعد: ٨؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ٨: ١٣٣، ٥٣٣-٥٣٥.

(٥٤) انظر مثلا: ابن القيم ص ١٨٨-١٨٩؛ وصبيي، قواعد ص ٣٧-٥٩.

للشمس... فتنمو إلى أن تصبح شجرة ضخمة. والأعشاب تخضر مع توفر الماء في الربيع وأسباب الحياة الأخرى، وتزدهر... ثم يأتيها الشتاء أو الصيف فتذوي وتجف... ولاشك أن كل هذا إنما يحدث بمشيئة من خلق هذه السنن الكونية.

وكل شيء سواء أكان سببا في سنة كونية أم نتيجة هي من صنع الله: المخلوقات المكلفة، والحيوانات والنباتات والجمادات... والمواد والقدرات البشرية المختلفة التي يتكون منها الإنسان: الروحية والفكرية والعاطفية والعضوية، كلها من خلق الله. وحتى حرية الاختيار التي يستخدمها الإنسان للاختيار مما خيره الله فيها (الأشياء المادية، والقدرات، والسنن الكونية) هي من صنع الله... (٥٥) فالمخلوق المكلف عندما يتخير سنة كونية أو مجموعة منها، فهو إنما يتخير سببا أو مجموعة من الأسباب ذات نتائج حتمية، خلقها الله.

وبهذا فإن الله عز وجل يخلق بواسطة الأمر المباشر، ويخلق بواسطة شبكة الأنظمة التلقائية المؤسسة على شبكة من السنن الكونية التي خلقها. وبهما يبدع الخالق المزيد من المخلوقات ويدبر شئون الكون كله.

---

(٥٥) ابن القيم ص ١٤٦؛ السعدي، العقيدة ص ١٥١-١٥٢؛ البخاري، خلق أفعال العباد: أفعال العباد.

خلق الرب وفعل العبد:

إن الحقائق السابقة تؤكد أن الله فعال لما يريد وقادر على أن يفعل ما يشاء متى شاء وكيف شاء. فهو سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء وليس في ذلك ظلم لأحد، وقادر على أن يهدي من يشاء وقادر على أن يضل من يشاء.(٥٦) ولكن هذه القدرة المطلقة والهيمنة الكاملة على ما يجري في الكون لا تقتضي أنه سيظلم أحدا فهو ليس بظلام للعبيد.(٥٧)

فالله هو خالق الكون وما فيه من جمادات ونباتات وحيوانات ومخلوقات مكلفة وحركاها وسكناها، والسنن الكونية التي تحكمها وتسيرها بطريقة تلقائية، وجميع الصور المحتملة لاستخداماها، خلقها وأوجدها من العدم. والله هو الذي خلق ما تتميز به المخلوقات المكلفة من عقل وهداية، وحرية اختيار. فهو الذي خلق كل شيء بما في ذلك ما يعملونه حيث يقول تعالى: {أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة وخلق كل شيء.}(٥٨) وقوله تعالى على لسان إبراهيم وهو يحاج قومه: { ... قال أتعبدون ماتنحتون. والله خلقكم وما تعملون}.(٥٩)

---

(٥٦) جميع آيات المشيئة تندرج تحت هذا المعنى. وانظر مثلا الآيات: البقرة: ١٠٥، ٢٢٠، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٧٢؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ٨: ٤٩٩-٥٠٠.

(٥٧) أنظر مثلا: النساء: ٤٠؛ يونس: ٤٤؛ الكهف: ٤٩؛ آا عمران: ١٨٢؛ الأنفال:٥١؛ الحج:١٠

(٥٨) الأنعام: ١٠١؛ وانظر الفرقان: ٢.

(٥٩) الصافات: ٩٥-٩٦؛ بعض المفسرين ذهبوا إلى أن المقصود "بما تعملون" هي الأصنام التي ينحتونها فقط؛ وانظر لهذا التفسير مثلا ابن عثيمين، مجموع ص ١٩٣-١٩٥.

فكل شيء وكل حدث، وكل فعل صغير أو كبير للعبد هو من خلق الله سبحانه وتعالى. فالله هو الذي خلق للعبد الأعضاء والقدرة على تحريكها بطرق مختلفة، والقدرة على تسخيرها لأغراض مختلفة. والله هو الذي خلق للعبد مجموعة من التكوينات العاطفية: الفرح والحزن والغضب ... والله هو الذي خلق للإنسان القدرة على التفكير، والقدرة على التعبير عن مشاعره وأفكاره. وبعبارة أخرى فإن المخلوق نفسه وجميع قدراته من خلق الله. فالأمر كما ورد في قول الإمام أبي حنيفة: "فلما كان الفاعل مخلوقا فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة."(٦٠)

ولعل المثال الذي ضربه دسوقي يوضح طبيعة مساهمة الإنسان في الأفعال التي تنسب إليه. فالإنسان في مثاله يشبه الصيدلي أو الكيماوي الذي ينتقي عددا من المواد الكيماوية الجاهزة، ويأخذ منها مقادير محددة، ثم يمزجها فينتج منها دواء. ويغير مقادير المواد نفسها ويخلطها فتنتج سما.(٦١) فالله خالق هذه المواد الكيماوية وخالق السنن الكونية (القوانين الطبيعية) التي تحدد العناصر والكميات (الأسباب) التي تنتج الدواء أو السم (النتائج الحتمية). بل هو الخالق أيضا للصيدلي وقدراته ومعلوماته...

وبعبارة أخرى، أعطى الله المخلوق المكلف القدرة (الجسمية والعقلية والمعرفة وحرية الاختيار...) على أن يصنع من هذه المواد التي خلقها الله

---

(٦٠) أبو حنيفة ص ٤٥.
(٦١) الدسوقي ص ٢٧٥.

أشياء، قد تعد خيرا أو شرا، في ضوء التشريعات الربانية وفي ضوء الفطرة التي فطر الله المخلوقات عليها.

والإنسان عندما يصنع هذه الأشياء، لا يخلق أشياء من العدم أو يبتكر أفعالا لم يخلقها الله، ولكن يختار تنفيذ أشياء خلقها الله، تتراوح بين أشياء يحبها الله من طرف ويبغضها الله من الطرف الآخر. وذلك لحكم كثيرة، منها ليعطي الإنسان فرصة كافية للاختيار. ولعل المثال التالي على المستوى البشري قد يوضح كيف يكون الله خالقا لكل شيء والإنسان فاعلا لبعض الأشياء ويكون مسؤولا عنها.

قد يستخدم المدرس الذي يريد اختبار طلابه الأسئلة ذات الإجابات الاختيارية فيضع عددا من الإجابات لكل سؤال. وحتى يعطي فرصة كافية للاختيار وللتمييز بين الدرجات المتفاوتة للاجتهاد وللاستفادة من الدروس، يجعل الإجابات تتراوح بين الإجابات الخاطئة تماما والإجابات الصائبة تماما، كما في الرسم المبين التالي.

إجابات صائبة تماما | --- | --- | --- | --- | --- | إجابات خاطئة تماما

فالمدرس وضع الاحتمالات المختلفة للإجابة عن السؤال، وهو يحب بعض الاحتمالات (الإجابات) ويجيز بعض الاحتمالات، ويبغض بعضها الآخر. والطالب سيجيب حسب اجتهاده واستفادته من الدروس. وقد يختار الإجابة الخاطئة، فينسب إليه الخطأ. وهو الذي يستحق

صفة "المخطئ" لأنه هو المسؤول عن هذا الاختيار الخاطئ.([٦٢]) وأما المدرس فلا يلحقه أي لوم لأنه وضع بعض الإجابات الخاطئة بين الإجابات الاختيارية. بل يستحق الثناء لأنه أحسن في إعداد الاختبار وأتقنه.([٦٣])

فالاختبار الجيد يجب أن يتضمن جميع الاحتمالات التي تقع بين الضدين. فبالليل نعرف حقيقة النهار والدرجات المتفاوتة بينهما، وبالمرض نعرف حقيقة الصحة...، وبالفقر نعرف حقيقة الغنى...، وبالفشل نعرف حقيقة النجاح...، وبالألم نعرف حقيقة المتعة...

ويتضح من المثال السابق أن الخير والشر وما بينهما من احتمالات مخلوقات لله سبحانه وتعالى، خلقها وأعطى العبد فرصة كافية لممارسة صلاحياته باعتباره خليفة في الأرض (آدم وأتباعه) أو باعتباره حزبا معارضا (إبليس وأعوانه). ويحب الله ما كان خيرا في شرعه أو بالفطرة التي فطر مخلوقاته عليها، أو يجيز ما جعله مباحا. ويحرم الله ما كان شرا في شرعه أو بالفطرة التي فطر مخلوقاته عليها، أو يكرهه. والعبد قد يختار الخير أو الشر، ليفعله ويتصف به. ولعل هذا يفسر قوله تعالى: { وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك. قل كل من عند الله.}([٦٤]) وقوله تعالى:

([٦٢]) انظر مثلا ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٢٣.

([٦٣]) يهدف هذا المثال إلى إثبات الفرق بين خالق الشر وفاعله المتصف به؛ وانظر تكملة المثال تحت عنوان "حرية الاختيار".

([٦٤]) النساء: ٧٨.

{ونفس وما سواها. فألهمها فجورها وتقواها}(٦٥) وقوله تعالى: {أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شيء قدير}.(٦٦)

فالآية الأولى تؤكد أن كل شيء من خلق الله ولن يستطيع الإنسان خلق شيء من العدم. والآية الثانية تؤكد حرية الاختيار للإنسان واستطاعته فعل الخير أو فعل الشر. وتؤكد الآية الثالثة بأنه لما كان الله يكره الشر فإن المخلوق المكلف إذا اختار فعل الشر مع وجود الخيار الآخر، فإنه هو المسؤول عن هذا الشر.

والحقيقة، حتى إبليس- أصل الشر والغواية- كان من الجن المؤمنين ولكن فشل في الامتحان برفضه الامتثال لأمر ربه، واختار طواعية أن يتصف بالشر وأن يصر على الرفض ويعقد العزم على غواية المخلوقات المكلفة، حتى تحرم من الجنة كما اختار لنفسه الحرمان منها.(٦٧)

الخير والشر:

يلاحظ عموما أن المعيار الحقيقي الذي يميز به بين الخير ودرجاته المتفاوتة والشر ودرجاته المتفاوتة هو التشريعات الربانية. ولكن

---

(٦٥) الشمس: ٧-٨. وانظر اللإنسان: ٢.

(٦٦) آل عمران: ١٦٥؛ وانظر ابن القيم ص ٢٨-٢٩.

(٦٧) ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٢٢-١٢٣، ٢٧٥-٢٧٧، ٢٠٤-٢٣٤؛ ٣٨٧- ٤٠٥، ج١٤: ٢٧- ٢٨؛ ابن القيم، شفاء ص ٥٢-٦٤، ٨٩؛ دسوقي ج١: ١٣٠-١٣٥، ٢٧٢-٣٠٠.

يلاحظ أيضا أن الخير والشر في حالات كثيرة أمور نسبية فما يعتبر خيرا في حالات يعتبر شرا في حالات أخرى.(٦٨) فالقتل اعتداء يعتبر شرا، وأما دفاعا عن النفس فيعتبر خيرا. وما يعتبر شرا بالنسبة لمخلوق قد يعتبر خيرا لمخلوق آخر؛ فالمرض -في الظاهر- شر للمريض وأقربائه، وهو مصدر رزق للطبيب ومن يعمل في المستشفيات...

القدر:

عند مراجعة النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ومعاجم اللغة العربية نجد معاني متعددة لكلمة القدر ومشتقاتها. ومن هذه المدلولات: الاستطاعة، التعظيم، التضييق، الحكم، القضاء، التدبر والتفكر، التحديد، القياس، العلم.(٦٩)

ويلاحظ أن كثيرا من مدلولات كلمة "القدر" ومشتقاتها في معاجم اللغة متأثرة بشرح المفسرين لها في سياقاتها التي وردت به في القرآن الكريم. كما أن المفسرين في حالات كثيرة يعتمدون في تفسيرهم على المدلولات اللغوية، ويرجحون مدلولا على آخر في ضوء السياق في حالة تعدد المدلولات اللغوية، حسب استعمالات الناطقين بها. فمثلا في قوله تعالى: {وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه}(٧٠) اختار المفسرون مدلول التضييق. وذلك بدلا من المدلول

---

(٦٨) ابن تيمية، مجموع ١٤: ٢١.
(٦٩) ابن منظور، الزبيدي، أنيس، باب قدر.
(٧٠) الأنبياء: ٨٧.

الذي قد يسبق إلى الذهن، أي خروج يونس عليه السلام من مجال هيمنة الله. فهذا الظن لا يليق بأنبياء الله لأنه يؤدي إلى الكفر. وكذلك اختار بعض المفسرين مدلول "علمنا" في قوله تعالى: {... إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين}(٧١) وذلك بدلا من "حكمنا" الذي يفيد الجبر، في مدلوله الظاهر.

كما يلاحظ من الرجوع إلى معاجم اللغة والاستعمالات الدارجة لكلمة "القدر" أن هذه الكلمة على وجه العموم وفي الظاهر يغلب عليها معنى "الجبر". بيد أن المتتبع لمدلول هذه الكلمة في كتابات علماء العقيدة المستمد من مقابلة النصوص بعضها ببعض والتوفيق بينها، يجد أن المكونات الأساسية لهذه الكلمة تعني أن الله علم ما سيجري في هذا الكون وأمر القلم بكتابة ذلك في اللوح المحفوظ.(٧٢)

وعموما يلاحظ أن القارئ عند مراجعة الآيات وثيقة الصلة ب"القدر" في سياق موضوع هذا الكتيب، سيجد مدلولين:

١ - مدلول يطابق مدلول القضاء بمعنى الأمر الرباني النافذ أو السنة الكونية (السبب والنتيجة الحتمية). ومن هذه الآيات قوله تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل...}(٧٣) وقوله تعالى: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم.}(٧٤) وقوله تعالى: { وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك

(٧١) الحجر: ٦٠. وانظر مثلا: الطبري وابن كثير لتفسير الآيتين وكذلك ابن منظور والزبيدي.
(٧٢) انظر مثلا: ابن تيمية، مجموع ج٣: ١٤٨-١٤٩؛ ابن القيم، شفاء ص ٦-٢٤.
(٧٣) يونس: ٥.
(٧٤) الحجر: ٢١.

فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام.}(٧٥) وقوله تعالى: {وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر.}(٧٦) وقوله تعالى: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا}(٧٧).

٢ - مدلول يعني تحديد واقع الشيء: عناصره وهيأته وزمانه ومكان وقوعه وكيفية حدوثه...، أي علم الله بالأشياء والإحاطة بواقعها وتسجيل ذلك العلم أو كتابته في اللوح المحفوظ. وكما يقول أبو حنيفة "ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم".(٧٨) وهذا المدلول ربما كان مشتقا من "قاس الشيء أو حدد مقداره أو وقته"(٧٩) كما في قوله تعالى: {... إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين}(٨٠) ولعل هذا المدلول هو نفسه المقصود في قوله صلى الله عليه وسلم: "فإذا غم عليكم فأقدروا له"(٨١) وعندما يقول أحدنا للآخر: كم تقدر سعر هذا الكتاب؟ أو بكم تقدر تكاليف طباعة عشرة آلاف نسخة من هذا الكتاب؟ وذلك مع الفرق الجذري وهو أن تقدير المخلوق تقدير خرص وتخمين، وتقدير الله تقدير علم يقيني.

---

(٧٥) فصلت: ١٠.

(٧٦) القمر: ١٢.

(٧٧) الفرقان: ٢.

(٧٨) أبو حنيفة، الفقه ص ٣٩؛ وانظر ابن تيمية ج٨: ٢٨٠، العسقلاني، طبعة جامعة الإمام ج١: ١١٨؛ وعبد الوهاب ص ٥٧؛ والأشقر ص ٢٥.

(٧٩) أنظر لهذه المدلولات من مدلولات كلمة"قدر" في الزبيدي وأنيس.

(٨٠) الحجر: ٦٠. وانظر مثلا: الطبري وابن كثير لتفسير الآيتين وكذلك ابن منظور والزبيدي.

(٨١) البخاري: الصوم، إذا رأيتم الهلال.

وإلى هذا العلم اليقيني المسجل قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[٨٢] تشير النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة. ومن هذه النصوص قوله تعالى: { ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها، إن ذلك على الله يسير.}[٨٣] وقوله تعالى: { إن الله لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء}.[٨٤] كما ورد في السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا كتبت شقية أو سعيدة..."[٨٥] وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: "أعلم (أو أيعرف) أهل الجنة من أهل النار؟ فقال: نعم. قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: كل ميسر لما خلق له."[٨٦]

من الطبيعي أن تكون هناك صعوبة في فهم العلم المطلق لله سبحانه وتعالى واستحالة في الإحاطة الكاملة بحقيقته. وذلك لأن **علم المخلوقات** ومنها المخلوق المكلف محدود بقيود أساسية منها قيد الزمان وقيد المكان وقيد الحواس المحدودة. وذلك بخلاف **علم الله** الذي لا تقيده هذه القيود. وفيما يلي نستعرض هذه القيود واحدة فواحدة ليتضح المقصود.

---

(٨٢) مسلم: القدر، حجاج آدم؛ وانظر تعلبق صديقي (مترجم صحيح مسلم).
(٨٣) الحديد: ٢٢؛ وانظر: هود: ٦؛ الحج: ٧٠؛ يس: ١٢؛ وتعليق ابن القيم شفاء ص ٤٠.
(٨٤) آل عمران: ٥.
(٨٥) مسلم: القدر، كيفية الخلق.
(٨٦) البخاري: القدر، حف القلم؛ وانظر مسلم والترمذي، القدر.

قيد الزمان:

عندما نقول إن علم الإنسان مقيد بقيد الزمـــان فإننـــا نقصـــد أن الإنسان يدرك الأشياء مجزأة على أجزاء صغيرة، ولكي يدرك الصـــورة الكاملة للأشياء أو الأحداث يحتاج إلى فترة زمنية قد تطول أو تقصـــر حسب حجم الشيء الذي يريد إدراكه أو الحدث. فمثلا لـــو أراد أن يعرف شـــكل قطـــعة من الورق (الحجم، والسماكة، واللـــون...) حتى لو كانت قطعة صغيرة فإنه يحتاج إلى فحص كل وجـــه بشكـــل مســـتقل. وبعبارة أخرى، يحتاج إلى فترة زمنيـــة ولاتكفيـــه النظـــرة الواحدة. وفي الوقت الذي يلقي فيه النظرة على الوجـــه الثـــاني، فـــإن معلوماته عن الوجه الذي فحصه أولا، تصبح معلومات تاريخية، قابلـــة للتشويه أو للنسيان. وعموما يمكن التمييز بين أربعة أنواع مـــن العلـــم للمخلوقات:

١ - علم اكتسبه في الماضي وهو عرضة للتشويه أو للنسيان.

٢ - علم يكتسبه في حاضره وهو أكثر علم المخلوق وضوحا عنده.

٣ - علم سيكتسبه في المستقبل عن شيء سيوجد في المستقبل، ويبقـــى غيبيا حتى يأتي المستقبل فيصبح حاضرا أو واقعا.

٤ - تخيلات لمجموعة من الأشياء محتملة الحدوث، لا يمكـــن حدوثـــها جمـــيعا في وقت واحد، (أن يكون الإنسان الواحد واقفا وجالســـا في نفس الوقت)، أو تخيـــلات لأشياء لا يمكن حدوثها لتخلـــف بعـــض شروط حـــدوثها. ومثال ذلك احتمال أن يكتب إنسان محدد في وقـــت

محدد رسالة، دون أن يكون لديه ما يكتب به (مثل القلم) أو ما يكتب عليه (مثل الورق).

ومثال الأنواع الأربعة أنك مثلا ربما تتذكر ماذا قرأ الإمام في صلاة الفجر قبل يوم أو يومين ولكن لا تتذكر ماذا قرأ في صلاة الفجر قبل أسبوع أو أسبوعين، وبالتأكيد تعرف ما يقرؤه الإمام وأنت تحضر صلاة الفجر معه، ولكن بالتأكيد لا تدري ما سيقرؤه الإمام في الصلاة التالية. وإن مات الإمام قبل أن يحين وقتها -فبالتأكيد- لا تعرف ما يحتمل أن يقرؤه لو لم يمت.

أما علم الله سبحانه وتعالى فهو علم مطلق لا يقيده قيد الزمان، فالله هو خالق الزمان. لهذا كل شيء عنده **حاضر** وعلمه بالأشياء علم يقيني، أي ليس هناك ما يمكن اعتباره غيبا بالنسبة لعلمه سبحانه وتعالى.

نعم قد يستطيع المخلوق التنبؤ بما سيأتي به المستقبل في حالة وجود نظام متكامل منتظم، يتألف من أسباب ونتائج حتمية ومرتبة بطريقة دقيقة ثابتة، وذلك في حالة الإحاطة الدقيقة بهذا النظام.

ولتتضح الصورة، افترض أنك لاحظت من كثرة صلاتك خلف إمام أحد المساجد أنه يتبع نظاما دقيقا. لقد لاحظت أن الإمام يقرأ سورا محددة في صلاة المغرب والعشاء والفجر من كل يوم من أيام الأسبوع. وبمعرفتك لهذا النظام الذي يتبعه الإمام أصبح في إمكانك تحديد (تقدير) ما قرأه الإمام في اليوم المحدد وإن لم تحضر الصلاة معه، حيث يمكنك القول بأن الإمام قد قرأ سورة كذا بالأمس مثلا (ماضي). وإن حضرت الصلاة معه فأنت تعرف ما يقرؤه الإمام في

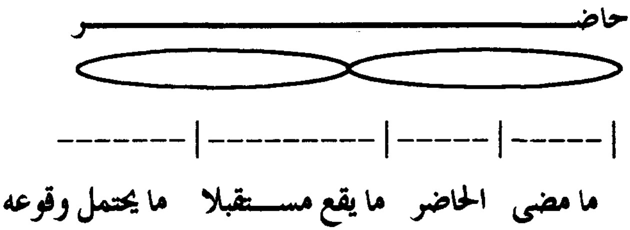
حضورك (حاضر). وتستطيع أن تقول بأن الإمام سيقرأ سورة كـذا، غدا (المستقبل). وحتى لو توفي الإمام قبل أن يأتي يوم غد فإنه يمكنـك التنبؤ بما يحتمل أن يقرأه الإمام لو بقي حيا.

وفي إمكانك تسجيل هذه المعلومات وحفظها لنفسك أو أن تطلـع الآخرين عليها كلها أو على جزء منها، دفعة واحدة أو مجزأة. ولكـن علمك هذا غير يقيني إلا بالنسـبة للصلاة التي تحضرها. ونلاحـظ في هذا المثال أن علم المخلوقات مقيد بقيد الزمـان (المـاضي والحـاضر والمستقبل المؤكد أو المحتمل) وقد تستطيع التحرر من هذا القيد -نسبيا- لوجود نظام دقيق محدد يتكون من أسباب (حلول وقت صلاة المغـرب يوم الاثنين مثلا) ونتائج حتمية (قراءة سـورة الانشـراح في الركعـة الأولى مثلا). ولكن المصلي في هذا المثـال لا يسيطر على هذا النظـام ولا على من عمل هذا النظام، وذلك لأن الإمام قد يغير نظامه هـذا في أي لحظة.

ومن آثار قيد الزمان أن المعلومة المحددة قد تكون علما يقينيـا عنـد أحدنا، وفي الوقت نفسه، تكوّن معلومة غيبية عنـد الآخـر. فنتـائج الامتحان -مثلا- عند المدرس الذي قام بتصحيح الإجابات تعد علمـا يقينيا، أما بالنسبة للطالب أو بالنسبة لأي شخص آخر لم يطلع علـى النتائج، تعد علما غيبيا. وفي أفضل الحالات قد تكون معلومة تقريبيـة متوقعة غير مؤكدة. فعلم الله مطلق وعلم المخلوق مقيد.

ولعل الشكل التالي يوضح الفرق بين العلم المطلق الذي لا يقيده قيد الزمان ولا بداية له ولا نهاية، ويمكن التعبير عنه بالدائرة، وعلم المخلوق

الذي يقيده قيد الزمان وله بداية ونهاية، ويمكن التعبير عنه بالخط المستقيم.



وبعبارة أخرى فإنه بالنسبة لعلم الله لا وجود لما نسميه بالماضي أو المستقبل فكل الأحداث بالنسبة لعلمه سبحانه وتعالى حاضرة.

قيد المكان:

من الموجودات ما هو في نطاق إدراكنا الحسي، يمكن أن ندركه بحواسنا الخمس وامتداداتها (وسائل التقنية الحديثة أو الطرق الروحية وما يندرج تحت الحاسة السادسة). ومن الموجودات ما هو خارج عن نطاق إدراكنا الحسي (أي هو غيبي). فالناظر من مكان مرتفع -مثلا- يرى ما لا يراه الناظر من موقع منخفض. فبعض الأشياء التي يدركها الأول وأصبحت جزءا من علمه تعتبر غيبيات بالنسبة للآخر وغير موجودة. وكذلك الواقف عند ملتقى شارعين متعامدين يرى ما لا يراه الواقف في أحد الشارعين بعيدا عن نقطة التقائهما. فالشارعان وما فيهما بالنسبة للأول يعتبر علما محسوسا، أما بالنسبة للآخر فأحد الشوارع وما فيه يعد من الغيبيات.

أما بالنسبة لعلم الله فلا يقيده قيد المكان أو الموقع، فليس هناك أشياء بعيدة أو مختفية وراء أشياء أخرى. بل كل شيء **حاضر**، فعلمه مطلق لا بداية له ولانهاية.

قيد الوسائل المحدودة للإدراك:

حواس الإدراك عند الإنسان محدودة، حتى إن بعض الحيوانات والحشرات لديها حواس أقوى من حواسه. فحدة نظر القطط في الظلام معروفة مثلا، وكذلك حدة حاسة الشم عند الكلاب لا تخفى على أحد.

وفي المقابل، فإن علم الله لا يقيده قيد الحواس المحدودة. فهو السميع البصير العليم وصفاته جميعها مطلقة. وعلمه مطلق حيث يقول تعالى: {وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه؛ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.}(٨٧)

ومن هنا جاء الاعتقاد بأنه "لا ينفع الحذر من وقوع القدر" لأن القدر هو تسجيل رباني دقيق مائة في المائة لما يجري في الواقع. وذلك بصرف النظر عن كون هذا الواقع بالنسبة للمخلوقات أشياء حدثت في الماضي أو تحدث حاليا أو ستحدث في المستقبل أو أنها أحداث محتملة الوقوع.

---

(٨٧) يونس: ٦١.

ومثال اللوح المحفوظ في المستوى البشري أن يقوم شخص بتسجيل ما يجري في الواقع مما يدركه إدراكا كاملا بحواسه الخمس، ويسجله بدقة تامة، أي بنسبة مائة في المائة. فهل يختلف ما يجري في الواقع عن ما قام بتسجيله؟ سيكون هناك تطابق كامل ما دام الإدراك كاملا والتسجيل تاما.

فالقدر هو تسجيل لكل شيء يقع في الكون، من علم الله الذي لا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة للمعرفة، أو كما عبر عنه ابن تيمية بقوله: "...تقدم علمه وكتابته وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة، كما تقدم علمه وكتابته لغير ذلك من أحوال العباد وغيرهم"(٨٨)، "وجميع الأسباب قد تقدم علم الله بها وكتابته لها، وتقديره إياها، وقضاؤه بها، كما تقدم ربط ذلك بالمسببات."(٨٩)

ويميز ابن القيم بين خمسة من أنواع التقدير: كتابة تقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وتقدير أمور العباد، وتقدير مستقبل الجنين، وتقدير ليلة القدر، والتقدير اليومي.(٩٠)

وعن العلاقة بين هذه التقديرات يقول بأن" كل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق.(٩١) ولكن لعل ما قاله ابن تيمية أرجح وهو أن ما سوى التقدير الأول المكتوب في اللوح المحفوظ

---

(٨٨) ابن تيمية، مجموع فتاوى ج٨: ٢٧٤ ، وانظر الصفحات ٢٧٢-٢٩٦.
(٨٩) ابن تيمية، مجموع فتاوى ج٨: ٢٧٧.
(٩٠) ابن القيم، شفاء ص ٧-٢٤.
(٩١) ابن القيم ص ٢٤.

ليس إلا عملية إحاطة للملائكة المكلفين بشؤون العباد مما يخصهم منها.(٩٢) ولهذا فإن هذه التقديرات الأخيرة قد تتغير كما ورد في قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب}(٩٣)

ولقد كشف القرآن الكريم والسنة النبوية عن بعض هذه الغيبيات المستقبلية مثل مصير الأنبياء في الآخرة، ومصير أبي لهب وامرأته(٩٤) ومصير العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.(٩٥)

وبهذا يتضح أن "الكتابة" في هذه النصوص تعني تسجيل واقع الأشياء أو وصفها مرتبطة بالعلم الرباني المطلق. وهي تختلف عن "الكتابة" في سياق النصوص التي تتحدث عن الإرادة الكونية. وبهذا يتضح أن القدر بما فيه من خير وشر لا يتعارض مع قدرة المخلوق المكلف على الاختيار. فهناك فرق بين أن يعلم الله ما سيفعله العبد بالضبط سلفا ويسجل ذلك، وبين أن يجبره على ما يفعله. ويعجب ابن تيمية من قوم يحتجون بالقدر عندما يعصون الله فيما أمرهم؛ ويرفضون القدر عندما يقع عليهم اعتداء من الآخرين. فهم يحرصون على معاقبة المعتدي والانتقام منه؛ ولا يعذرونهم بالقدر كما يعذرون أنفسهم به.(٩٦)

---

(٩٢) ابن تيمية، مجموع ج٨: ٣٩٩، ج١٤: ٤٨٨-٤٩٢.

(٩٣) الرعد: ٣٩؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ج٨: ٥١٧، ٥٤٠؛ والأشقر ص ٦٧.

(٩٤) وانظر المسد: ١-٥.

(٩٥) ابن الأثير ج٨: ٥٦٢-٥٦٦.

(٩٦) ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٠٧؛ ٢٤٨-٢٥٠.

وأما ما ورد من قول آدم عليه السلام لموسى عليه السلام:"يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله على قبل أن يخلقني بأربعين سنة."(٩٧) فهو من نوع المعاتبة بالأسلوب المماثل. فكلاهما يعرفان حقيقة القدر. وقد يكون أيضا من قبيل التصبر على ما وقع منه وأدرك خطأه فيما بعد، وليس من قبل الاحتجاج بالقدر لإعفاء النفس من المسئولية أو للاستمرار في فعل المعصية. فقد اعترف آدم بذنبه وتاب منه، إذ يقول تعالى على لسانه ولسان حواء: {قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.}(٩٨) والتصبر بالقدر عند وقوع المصيبة جائز، لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان."(٩٩)

وفي جميع الأحوال، لا أحد يعلم ما هو مسجل في اللوح المحفوظ. فعلى المخلوقات المكلفة أن تجتهد في حسن استغلال ما أنعم الله عليها من إمكانات وقدرات ومنها العقل وحرية الاختيار، وفي ضوء الهدى الرباني. فالمحاسبة إنما تكون على ما يبذله المخلوق المكلف من الجهد في ضوء إمكاناته، وليس على ما ينجزه من عمل.

---

(٩٧) البخاري: القدر، تحاج آدم موسى.

(٩٨) الأعراف: ٢٣.

(٩٩) مسلم: القدر، في الأمر بالقوة؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ج٨: ١٧٧-١٧٨؛ ابن القيم ص ١٨.

العلاقة بين الكلمتين:

اختلف العلماء في العلاقة بين القضاء والقدر. فهناك من فرق بينهما، مع إثبات نوع من العلاقة بينهما([100]) ومثاله نقلا عن "لسان العرب يقول الزهري: "القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أحكم عمله أو أتم أو ختم أو أدى أداء أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضي فقد قضي. ... ومنه القضاء المقرون بالقدر، والمراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق."([101]) وقد يعتبرهما البعض كلمات مترادفة.([102])

وبمراجعة النصوص القرآنية التي تم الاستشهاد بها عند الحديث عن القضاء نجد تداخلا بين مدلول كلمة "القضاء" وبعض استعمالات كلمة "القدر"، حيث ورد مدلول القضاء ببعض مشتقات كلمة "القدر".([103]) ولكن عند مراجعة قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يرد القضاء إلا الدعاء"،([104]) وقوله: "فلو شيء يسبق القضاء لسبقته العين"([105])،

([100]) درويش ص ٢٦-٤٠.

([101]) ابن منظور: باب قضي.

([102]) انظر الترمذي، القدر، يعنون لحديث "لايرد القضاء إلا الدعاء" ب"لايرد القدر..."؛ المحمود ص ٢٩.

([103]) القمر: ٤٩؛ الرعد: ٨؛ وانظر الحواشي: ٧٣-٧٧.

([104]) الترمذي: أبواب القدر، باب ٦؛ وقد اعتبره حسنا غريبا وصحح ابن حبان والحاكم إسناده وانظر المباركفوري ج٦: ٢٩٠.

([105]) ابن قيم الجوزية، الطب النبوي ونسبه إلى النسائي والترمذي وورد في الترمذي بلفظ "القدر" في أبواب القدر؛ وانظر "إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيرا له."

يتأكد لدينا وجود فرق بين "القضاء" و"القدر" الذي ورد في قوله صلى الله عليه وسلم عند إجابته عن سؤال جبريل عليه السلام عن الإيمان وهي "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر؛ وتؤمن بالقدر خيره وشره."(١٠٦). فالمقصود بالقدر في هذا الحديث ما تم تسجيله في الأزل من علم الله، وعلمه ثابت لا يتغير. وعلم الله مطلق ولا تخفى عليه خافية ولا يقيد علمه قيد المكان أو قيد الزمان أو قيد الحواس المحدودة. **فكل شيء وكل حدث يوجد في أي مكان أو زمان بالنسبة لعلمه حاضر.** والعلم أيضا ليس شيئا يترل أو يصدر فيسبق أو يسبق. وهذا بخلاف القضاء أو الحكم ونتيجته الحتمية فقد يرد الدعاء النتيجة الحتمية للسنة الكونية، ويسبق أو يمكن أن يقال عنه أنه يحتمل أن يسبق.

أحمد: ج٣: ١١٧، ١٨٤.

(١٠٦) مسلم: الايمان، بيان الايمان.

الفصل الثاني

تكليف الثقلين

لا خلاف أن الجن والإنس مخلوقات مكلفة ولكن ما أصل هذا التكليف؟ وما علاقة هذا التكليف بالتفاوت في النعم التي ينعم بها كل فرد من الجن والإنس؟ سيتم الحديث في هذا الفصل عن أصل التكليف، وضرورة التفاوت في الإمكانات الأساسية، والنعم الأساسية التي عليها التكليف.

أصل التكليف:

يقول الله سبحانه وتعالى: { وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون. وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.}(١٠٧) وميز الله هذا المخلوق بأن أسجد له الملائكة، حيث يقول تعالى للملائكة: {فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين.}(١٠٨)

---

(١٠٧) البقرة: ٣٠-٣٢.

(١٠٨) ص: ٧٢. وانظر الآيات ٧١-٨٥.

والخلافة كما نعرف مكانة مرموقة ومنصب رفيع لها متعتها وامتيازاتها الخاصة، ولكن لها مسؤولياتها ومزالقها. فهي أمانة يحق لهذا الخليفة الاستفادة منها، بشرط أن يتحمل مسؤوليتها. ولعل الخلافة ومستلزماتها هي المقصودة في قوله تعالى: { إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا.}(١٠٩)

ومن الامتيازات نعم الله التي لا نحصيها، حيث يقول تعالى: { وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها}(١١٠) {ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا.}(١١١) وقوله تعالى: { ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات ومافي الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة.}(١١٢) وقوله تعالى: { الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه؛ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.}(١١٣) ولكن هذه النعم هي لبست للاستمتاع بها مؤقتا فقط ولنها وسائل للاختبار الذي يحدد درجة السعادة أو الشقاوة في الحياة الأبدية، حيث يقول تعالى:

---

(١٠٩) الأحزاب: ٧٢؛ وانظر مناقشة دسوقي لمدلولات هذه الآية ج١: ١٠٨ ١٢٣؛ إقبال ص ٦١ ٦٢، نقلا عن الخطيب، مشيئة ص ٥٠-٥٢.

(١١٠) إبراهيم: ٣٤.

(١١١) الإسراء: ٧٠.

(١١٢) لقمان: ٢٠.

(١١٣) الجاثية: ١٢-١٣.

{إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عمــــلا}(١١٤) وبعبارة أخرى فإن الحياة الدنيوية اختبار للإنسان الذي تحمل هذه الأمانة أي الخلافة في الأرض. ومن هنا جاء التكليف للإنسان.

أما بالنسبة للجن، المخلوق الآخر المكلف، فقد سبق أن قلنا بأن الله خلق آدم ليكون خليــفة في الأرض وأمر الملائكة أن يســـجدوا لـــه، ومعهم إبليس الذي كان يعبــد الله في الجنة. بيـــد أن العـــزة بـــالإثم والكبرياء أخذت إبليس فعصى أمر ربـــه، ورفـــض أن يســـجد لآدم. فكان ذلك العصيان سببا في طرده من الجنة. وإمعانا في الإصرار علـــى العصيان طلب إبليس من ربه أن يمهـــله ليعمل على إغـــواء بـــني آدم، حيث يقول تعالى: { ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنـــا للملائكـــة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الســـاجدين. قـــال مـــا منعك ألا تسجد إذ أمرتك؛ قال أنا خير منـــه خلقتني من نار وخلقتـــه من طين. قال فاهبط منها فما يكـــون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنـــك من الصاغرين. قال أنظرني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المنظرين. قـــال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديـــهم ومن خلفهم وعن أيمـــانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شـــاكرين. قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكـــم أجمعين.}(١١٥)

---

(١١٤) الكهف: ٧.

(١١٥) الأعراف: ١١- ١٨.

ويلاحظ أن الله قد منح إبليس العقل،(القدرة على التميز بين المخلوق من النار والمخلوق من الطين)، والهدى (الأمر بالسجود لآدم)، وحرية الاختيار. وكان في إمكان إبليس أن يحسن الاستفادة من هذه النعم ويختار الطاعة كما أطاعت الملائكة. ولكن إبليس أساء استخدام هذه النعم التي تميز المخلوقات المكلفة، واختار العصيان طواعية وبدافع الكبرياء. ومع هذا فهو يكذب ويقول: "فبما أغويتني". وهذا هو قول كثير ممن يعصون الله ويتبعون شهواتهم وهو احتجاج مرفوض كما اتضح معنا عند تعريف القضاء والقدر.(١١٦)

وقام إبليس بالفعل في تنفيذ وعيده لآدم وذريته، إذ يقول تعالى: {ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلاهما بغرور}(١١٧)

فإبليس إذا أول من أساء استخدام نعمة العقل، والهداية، وحرية الاختيار بتمرده على أمر ربه. ولم يقتصر على ذلك؛ بل أصر على العصيان وطلب المهلة لاستغلال هذه النعم أسوأ استغلال وهي محاولة إغواء بني آدم بالعصيان الذي اختاره لنفسه.

أما آدم وحواء عليهما السلام فإنهما مع وقوعهما في المعصية لم يصرا عليها بل طلبا المغفرة بإخلاص، معترفين بظلمهما لنفسيهما. فالله

---

(١١٦) انظر الطبري لتفسير الآيات المذكورة؛ أبن كثير؛ والخطيب، مشيئة ص ٥٧-٥٨.

(١١٧) الأعراف: ١٩-٢٢.

سبحانه وتعالى يقول: {فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين. قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}.(١١٨)

فأصل الشر إذا عصيان إبليس ربه ثم غوايته آدم، حيث صدق آدم كذبة إبليس ووقع في معصية ربه. وهنا بدأ الصراع بين أبي البشرية ومن سلك طريق الخير من نسله ومن الجن من جهة، وبين إبليس ومن سلك طريق الشر من جنسه ومن الإنس من جهة أخرى، إذ يقول تعالى: {قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون.}(١١٩) والآية هنا تؤكد لنا أيضا تزويد آدم بالعقل، والهداية وحرية الاختيار حتى قبل نزوله إلى الأرض.

ولما كانت الإنس مسؤولة عن الخلافة فإنها استحقت أن تميز بالعقل، والهدى الرباني، وبدرجة من حرية الاختيار. وأما الجن فلعل أصل تكليفها نبع من الفرصة والقدرة التي منحها الله لإبليس ليتمكن بواسطتها من محاولة إغواء آدم عليه السلام ومن يسلك طريق الخير من نسله ومن الجن. وبهذا استحق إبليس وبني جنسه التمييز

(١١٨) الأعراف: ٢٢-٢٣؛ ليست هناك نصوص صريحة في بيان ما إذا كانت الجن كلها من نسل إبليس أم لا، ولكن النصوص صريحة على أن إبليس خلق من نار وكذلك الجن. وانظر مثلا: بالي ص ١٨-٢٠.

(١١٩) الأعراف: ٢٤-٢٥.

بالعقل، والهدى، وحرية الاختيار اللازمة إما للقيام بالوظيفة التي اختارها لنفسه ولمن يتبعه، أو بمحاولة النجاة من النار ودخول الجنة.

وبهذا يبدو أن أصل المهمة التي التزم بها آدم عليه السلام وبنيه هي نشر الخير، وأن أصل المهمة التي التزم بها إبليس وجنسه هي نشر الشر. ولكن شاءت عدالة الله منح فرص متكافئة للجنسين. فالإنس يمكنهم باختيارهم الانضمام إلى حزب إبليس، والجن يمكنهم باختيارهم الانضمام إلى حزب آدم عليه السلام.

ومن الآيات التي تؤكد أن الجن والإنس مخلوقات مكلفة قوله تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}(١٢٠) وقوله تعالى: {يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم ءاياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا شهدنا على أنفسنا، وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين.}(١٢١)

وهذه النعم الثلاث: العقل، والهدى، وحرية الاختيار، التي سيأتي الحديث عنها بشيء من التفصيل، هي نعم إضافية تميز المخلوقات المكلفة على المخلوقات غير المكلفة. وبعبارة أخرى فإن هذه النعم الثلاث هي الموجبات للاختبار أو التكليف. وذلك لأن المخلوقات الأخرى لم تخل من نعم الله اللازمة لحياتها في الأرض. فقد سخر الله الجمادات للنباتات وللحيوانات وللجن والإنس، وسخر النباتات للحيوانات والإنس والجن، وسخر الحيوانات للإنس والجن بدرجات متفاوتة.

---

(١٢٠) الذاريات: ٥٦.

(١٢١) الأنعام: ١٣٠.

ضرورة التفاوت في الإمكانات:

واقتضت حكمة الله أن تتفاوت المخلوقات في الوسائل والإمكانات، ونوع المسؤوليات، ودرجاها لأسباب ربما منها:

١ - لا يُعرف الشيء معرفة جيدة ولا تعرف قيمته إلا بضده. فلولا الجهل لما عرفنا قيمة العلم والدرجات المتفاوتة بينهما، ولولا القلق لما عرفنا نعمة السكينة النفسية والطمأنينة والدرجات المتفاوتة بينهما، ولولا الهوان والمذلة لما أدركنا نعمة السلطة والجاه...، ولولا الفقر لما عرفنا قيمة الغنى...، ولولا الموت لما عرفنا قيمة الحياة، ولولا العدم لما عرفنا الوجود...[١٢٢]

٢ - بدون هذا التنوع والتدرج في الإمكانات لا يكون الاختبار متقنا، أي لا تكون الحياة ممتعة وشيقة. فالسباق والتنافس من أبرز الأشياء التي تبعث النشاط والحركة في الحياة وتبعد عنها الملل والسكون القاتل.

٣ - ما دامت المخلوقات ستعيش في مجتمعات صغيرة وكبيرة، فإن عملية التكامل تصبح ضرورية. فالمحكومون لابد لهم من حاكم يحكمهم، والمرضى لابد لهم من طبيب يعالجهم، والمحتاجون إلى التعليم لابد لهم من متعلم يعلمهم... والعكس صحيح. وكل مهنة تحتاج إلى من يقوم ها بإتقان. وهذا يتطلب التخصص...

وقد سألني أخ مسلم، كان يدرس على حسابه الخاص في الولايات المتحدة، وصلت به الضائقة المادية إلى أقصى حدودها: "أليس الله

---

[١٢٢] وانظر الخطيب، القضاء ص ٧٩-٨٠.

رحيما؟ فلماذا لم يسو بين الناس في الرزق؟"فقيل له: ألا تعتقد أن هــذا يقتل الحوافز ويسوي بين المجتهد والكسول، ويقضي على أبرز عوامــل المتعة وهي التنافس؟ وافترض أن أحد المدرسين دخل على طلبته في أول يوم في الفصل الدراسي وأعلن بأنه رحيم وكريم .... ولهــذا سـيعطي جميع الطلاب درجة الامتيــاز. فهل مثــل هــذه "الرحمــة" تسـعد المجتهدين، ولاسيما أولئك الذين يكدحون لتوفير الرســوم الدراسـية وتكاليف الحيــاة، وذلك في مقابل الذين توفرت لهــم كــل أسـباب الدراسة ولكن حرصهم على رخص السواقة (الشهادات) أكثر من حرصهم على اكتساب المعرفة والمهارات؟

إن هذا المدرس ساوى بين الطلاب في جزئية صغيرة يسيطر عليها ولا نعتقد ذلك التصرف من العدالة في شيء. فكيف لو تم تطبيــق هــذه "الرحمــة" في قسمة كل شــيء: الإمكانــات والصفــات الفطريـة والمكتســبة؟ فلا ذكر ولا أنثى ولا أب ولا ابن... ولا غني ولا فقــير ولا حاكم ولا محكوم...!

وفي هذا الصراع من أجل النجاح أو الفوز في هذا الاختبار كل نفس مسؤولة عن نفسها، إذ يقول تعالى: {ولا تكسب كل نفس إلا عليــها ولا تزر وازرة وزر أخرى}(١٢٣) ولكن التعــاون على النجاح وبــين قوى الخير شيء مشــروع بل ومطلوب، وأما عكســه – وإن كــان

---

(١٢٣) الأنعام: ١٦٤.

مأذونا به لغرض الاختبار- فهو مذموم، إذ يقول تعالى: { وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان }.(١٢٤)

النعم الأساسية والتكليف:

لقد سبقت الإشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى ميز المخلوقات المكلفة بثلاث نعم أساسية هي: العقل والهدى وحرية الاختيار، فما المقصود بهذه النعم وما أهميتها؟

أولا: العقل:

ميز الله المخلوقات المكلفة (الإنس والجن) بالعقل أو القدرة العالية في إدراك الأشياء التي تتعرض لحواسه الخمس، والقدرة في التمييز بين كميات كبيرة منها، وتخزين أنواع عديدة منها لفترات طويلة، وتنمية معلومات إضافية منها. فالمخلوق الذي لديه عقل يستطيع إدراك ما يحيط به من نعم وما يتوفر له من إمكانات، ويستطيع تخزين ما يدركه للاستفادة منه فورا أو في المستقبل. والمخلوق الذي تتوفر له هذه القدرة يمكنه استيعاب الإرشادات والتعليمات التي تهديه إلى سبل الخير والنجاح والفلاح وتحذره من سبل الشر والفشل، ومن ثم تسخير هذه الإرشادات في توجيه أفكاره وعواطفه وأقواله وأفعاله، لما فيه صلاح دينه ودنياه.

---

(١٢٤) المائدة: ٢.

وبدون هذه القدرة يترل الإنسان إلى مرتبة النباتات والحيوانات غير المكلفة، أو أن يكون -في الأصل مخلوقا مكلفا- ولكنه فقد أهليته للتكليف بسبب جعله مجنونا، أو معتوها أو فاقدا للوعي.

وبهذا يتضح أن العقل نعمة عظيمة تستحق ثمنا غاليا وتستوجب المحاسبة لمن يملكها، وليس هناك مخلوق سوي يفضل حالة الحرمان منها، أي أن يصبح مجنونا أو معتوها أو فاقدا للوعي طوال حياته، ويعفى من المحاسبة.(١٢٥)

ثانيا: الهداية:

وردت كلمة الهداية في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في مواضع عديدة إما مستقلة أو مقرونة بكلمة الضلال، وقد يأتي مدلولها بعبارات أخرى. وعموما يمكن التمييز بين أنواع ثلاثة رئيسة من الهداية: الهداية الفطرية، والهداية الإرشادية، والهداية المضمونة.(١٢٦)

أ - الهداية الفطرية. وينقسم هذا النوع من الهداية إلى قسمين:

١ - القسم العام لجميع المخلوقات المكلفة وغير المكلفة. وهي هداية المخلوقات إلى مصالح معاشها وما يقيمها. ويندرج ضمن هذه الهداية ما

---

(١٢٥) وأما ما ورد عن بعض الصالحين من تمنيهم لو أن أمهاتهم لم تلدهم أو أنهم كانوا من المخلوقات غير المكلفة فذلك تعبير عن شدة الخشية من الله وقد اقتربت ساعة الحساب وليس رفضا منهم لنعم الله التي استمتعوا بها في حياتهم.

(١٢٦) هذا التقسيم مستفاد من استقراء النصوص القرآنية والحديثية ومن ابن القيم، شفاء ص ٦٥-٨٥ وله تفصيلات مفيدة.

يمكن تسميته بالمعرفة الفطرية أو الغريزية التي يولد بها المخلوق ومثالها التنظيمات المتقنة التي تعيشها الحيوانات والحشرات. ومن أشهر هذه التنظيمات ما يعيش فيها النمل والنحل . ويتمثل في قوله تعالى: { ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى} (١٢٧)

٢ - القسم الثاني ويتمثل في قول الله تعالى: { وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم. قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون.} (١٢٨) ولعل هذه هي الفطرة التي يشير إليها الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه... قالوا يا رسول الله أ فرأيت من يموت منهم وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين." (١٢٩)

وهذه النصوص تؤكد أن الله قد زود الإنسان بمعرفة التوحيد أو هداه إلى وحدانية الله بالفطرة. ولكن هذه الهداية التي لم يحرم منها أحد من بني آدم ليست ضمانا للنجاح في الاختبار. فقد تكون لصالحه إذا استخدم الإمكانات الأخرى التي منحها الله له وفقها. وقد تكون شاهدة عليه إن هو تجاهلها عند استخدام الإمكانات التي منحها الله له. ولعل هذا معنى قول الرسول صلى الله عليه سلم بأننا لا نستطيع الجزم

---

(١٢٧) طه: ٥٠؛ وانظر والأعلى ١-٣؛ الإنسان: ٣.

(١٢٨) الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

(١٢٩) البخاري: القدر، الله أعلم؛ مسلم، القدر، معنى كل مولود.

بمصير من يموت صغيرا، لأن الله أعلم بما كانوا عـــاملين لــو عـــاشوا وتوفرت لهم موجبات التكليف: العقل، الهداية، وحرية الاختيار. فـــالله يعلم جميع الاحتمالات الممكنة إذا توفرت جميـــع الأســـباب أو تـــأخر بعضها. وعموما يؤكد لنا الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الأطفـــال الذين يموتون دون أن يبلغوا الحلم والمعتوهين يمتحنهم الله يوم القيامـــة. فإما إلى الجنة أو إلى النار.(١٣٠)

ب – الهداية والإرشاد. ويتمثل النوع الثاني من الهداية في قوله تعـــالى: {وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى}(١٣١) فقد أرسل الله الرسل بالهدى الرباني ليذكروا الناس بالميثاق الذي قطعوه على أنفســـهم ويزودهم بالإرشـــادات التفصيلية المناسبة لكل مرحلة مـــن المراحـــل الرئيسة لحياة المخلوقات المكلفة في الأرض.

ج – الهداية المضمونة. ويتمثل هذا النوع الثالث في الهداية التي يختص الله بها بعض عباده. وهي كالهداية التي اختص الله بها أنبياءه ورسله وبعض عباده مكافأة لهم أو تفضلا عليهم. وهذه الهداية إذا منحها الخالق لبعض عباده فهو المتصرف في ملكه، وإن منعها عن كثير من عباده وتركـــهم لكسبهم فقط، فإنه لا يظلم بذلك أحدا. فـــأنت وإن كنـــت مخلوقـــا تستطيع أن تمنح من مالك لمن شئت، بعد أن تؤدي حقوق الله، وتمنعـــه عمن تشاء، دون أن يكون في ذلك ظلم لأحد.

---

(١٣٠) ابن تيمية، مجموع ج٤: ٢٤٣-٢٤٧؛ ابن القيم ص ٢٢، ٢٩-٣٠، والحواشي: ٣٥-٣٨ في الفصل الثالث.

(١٣١) فصلت: ١٧.

والهداية أو الإرشادات التي تبين للإنسان طريق الخير وطريق الشر، أو طريق النجاح والفوز أو طريق الفشل، يمكن تصنيفها من حيث درجة الوضوح إلى: ١) إرشادات قطعية الدلالة لا تقبل الاختلاف. ٢) إرشادات ظنية الدلالة تقبل التعدد في وجهات النظر.

ويمكن تصنيفها من حيث درجة الإلزام إلى: ١) إرشادات فرض عين. ٢) إرشادات فرض كفاية. ٣) إرشادات سنة مؤكدة. ٤) إرشادات مستحب تنفيذها، ٥) إرشادات إباحة صريحة، ٦) إرشادات تنفير، ٧) إرشادات تحريم.

ويلاحظ أن هذه الإرشادات هي تذكير بالميثاق الذي تم أخذه على بني آدم، وتفصيل له. وهناك أمور كثيرة متروكة لاجتهاد المخلوق المكلف واختياره.

حرية الاختيار:

لا يشك عاقل في أن المخلوقات المكلفة تتمتع بدرجة من حرية الاختيار عالية، خلقها الله لها. ويؤكد الله سبحانه هذه الحقيقة في قوله تعالى: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.}(١٣٢) وفي قوله تعالى: {وهديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا }(١٣٣). كما يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة في قوله: "لا يدخل

---

(١٣٢) الكهف: ٢٩.

(١٣٣) الإنسان: ٣؛ وانظر الفرقان: ٥٧ المدثر: ٣٦-٣٧؛ والبلد: ١٠.

أحد الجنة إلا أري مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكرا، ولا يدخل النار أحد إلا أري مقعده من الجنة لو أحسن، ليكون عليه حسرة."(١٣٤)

وهذا يعني أن حرية الاختيار ذات درجات متفاوتة، وليست إما هذا أو ذاك. ويصدق هذه الحقيقة قوله صلى الله عليه وسلم أيضا: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم."(١٣٥)

بيد أن الله وضع حدا فاصلا بين التجاوز الذي قد يغفر والتجاوز الذي لا يغفر بتاتا، حيث يقول تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.}(١٣٦) فقد يغفر الله للمخلوقات المكلفة عصيان بعض أوامره، ولاسيما إذا كان العصيان بسبب الغفلة أو التهاون، وليس بسبب المكابرة أو الرفض لأوامر الله. وذلك رحمة بعباده وتفضلا عليهم؛ ولكن لا يغفر لمن مات مشركا الشرك الأكبر، ولا يقبل فيه شفاعة. ويلاحظ أن معيار الشرك مستمد من الإسلام باعتباره خاتم الرسالات السماوية، إذ يقول تعالى: {إن الدين عند الله الإسلام} ويقول تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه}.(١٣٧) فقد أرسل الله الرسل إلى جميع الأقوام، حيث يقول تعالى: {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير.}(١٣٨) ولكنه جعل الإسلام آخر

---

(١٣٤) البخاري: الرقاق، صفة الجنة.

(١٣٥) البخاري: الاعتصام، باب قول النبي؛ مسلم: الفضائل، باب توقيره

(١٣٦) النساء: ٤٨، ١١٦.

(١٣٧) آل عمران: ١٩، ٨٥.

(١٣٨) فاطر: ٢٤.

الرسالات السماوية، تتسق والمرحلة التي انتهت إليها البشرية وتنتهي بها الحياة الدنيوية.

ومن جهة أخرى فإن المخلوقات المكلفة تمتلك حرية أوسع -وربما كانت غير محدودة بشيء- في عالم الخيال، أي التفكير وأحلام اليقظة، ولا يحاسب العبد على ما يجري فيها ما لم يعمل على التعبير عن هذه الأفكار المحظورة أو يعمل على تنفيذها.(١٣٩) أما في مجال الواقع فإن هذه الحرية موجودة ولكن مقيدة بعوامل كثيرة تخرج عن مجال سيطرة هذه المخلوقات.(١٤٠)

وقد اتضح لنا عند الحديث عن القضاء أنه لا تعارض بين كون أي شيء يقوم به المخلوق المكلف (حركاته وسكناته وما يحققه بهذه الحركات والسكنات) من خلق الله، وبين أن يكون ذلك الشيء أيضا من فعل العبد. فالطالب وهو يؤدي امتحانا يتمثل في اختيار أحد الخيارات المتعددة التي تتراوح بين الإجابة الخاطئة تماما والصائبة تماما، يقوم بفعل يتحمل مسؤوليته. وذلك على الرغم من كون المدرس هو الذي وضع تلك الإجابة التي اختارها الطالب وأعطاه الفرصة لاختيارها ولكنه لم يرغمه عليها.

ولعل المثال التالي المبني على المثال الذي أوردناه سابقا في المستوى البشري قد يوضح كيف يكون الله خالقا لكل شيء والعبد فاعلا

---

(١٣٩) البخاري: الرقاق، من هم بحسنة.

(١٤٠) الخطيب، القضاء ص ٤٩-٥١.

لبعض الأشـياء ويكون العبد مسـؤولا عنها، ويوضح لنـا طبيعـة الاختيار وعلاقته بحقيقة الاختبار.[141]

افترض أن مدرس الكيمياء أراد أن يختبر طلبته فوضع سؤالا يختبر بـه درجة استيعاب الطالب لما سبق أن درسه، وليختـبر حسـن اختيـاره للإمكانات المتوفرة، ودرجة اجتهاده ومثابرته في تسخيره لها، ودرجـة إتقانه لما ينجزه من خطوات. فوضع للسؤال عددا من الأجوبة ليختـار الطالب منها. وكانت الأجوبة عبارة عن مركبات عديدة تتراوح بـين مركبات قاتلة في الحال -من طرف- ومركبات تعالج جميع الأمـراض، من الطرف الآخر. وعلى الطالب اختيار المركب الذي يفترض فيـه أن يكون خاليا من أي مادة سامة على الأقل. والأفضل أن يختار مركبا له قيمة علاجية أو له قدرة على معالجة كل الأمراض. وقد زوده المـدرس بإرشادات واضحة تعينه على تمييز ذات الطبيعة العلاجية عن الأخـرى، السامة. وذلك زيادة على ما علمه من قبل.

ولكن يلاحظ أن المدرس جعل المركبات تتدرج من مركب صعـب جدا يحتاج إلى جهد كبـير ودرجة عالية من المهارة والصـبر-مـن طرف- ومركب يحتاج إلى جهد قليل ودرجة من الإتقان منخفضـة، وخطوات تنفيذه ممتعة في الطرف الآخر. وجعل المركب الـذي يعـالج جميع الأمراض أكثرها صعوبة ومشقة، والمركب الذي ينتج عنه سم قاتل أكثرها سهولة ومتعة.

---

(141) انظر تحت عنوان خلق الرب وفعل العبد.

وتتمثل الصعوبة الأخرى للاختبار في كون موعد نهايته غير معروف عند الطلاب، وتختلف مدة الاختبار من طالب إلى طالب، حتى يختبر درجة المثابرة والصبر. ولكن ليكون الاختبار منصفا لا يشترط عملا متكاملا، ويكفي أن يكون الاختيار صائبا والخطوات صحيحة عند نهاية الاختبار.

ومن جانب آخر ترك للطلاب حرية استشارة بعضهم البعض وتبادل المعلومات والآراء بحرية تامة. فعمل الطلبة المجدون على تزويد زملائهم بالآراء السديدة، وتذكيرهم بأهمية الاختبار وبواجبهم كطلبة علم. كما عملوا على تشجيعهم على الاجتهاد في العمل وعلى الصبر والمثابرة. ومن جهة أخرى عمل الطلبة الكسالى رفاق السوء على تثبيط العزائم وتزيين الراحة والمتعة الوقتية ونشر الشائعات التي تفيد بأنه لا يزال هناك متسع من الوقت والمدرس متساهل في التصحيح، وليس جادا في التهديد، ويعطي فرصة لإعادة الاختبار...

في هذا المثال، لو حصل بعض الطلاب على الدرجة صفر لاختياره مركبا ذا طبيعة قاتلة، فهل نلقي باللائمة على المدرس الذي وفر المواد الكيماوية وجميع الاحتمالات من المركبات ومنح الطالب حرية الاختيار منها؟ أو نلقي باللائمة على الطالب الذي اختار تنفيذ المركب الكيماوي القاتل؟

في مثالنا هذا لا يخلق المدرس المواد الكيماوية والمعلومات التي يدرسها لطلابه ولا القدرات التي تحتاجها عملية تنفيذ المركبات التي يختارها الطالب، ولا يستطيع المدرس تجريد الطالب من الإمكانات والمعلومات

اللازمة لتنفيذ المركب، ولا يحيط بجميع المركبات المحتملة من تلك المواد الكيماوية. وقد لا يستطيع إجبار الطالب على اختيار المركب الذي يضمن له النجاح بدلا من المركب الذي يختاره الطالب ويتسبب له في الفشل في الاختبار.

أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فهو خالق كل هذه الإمكانات (الوسائل المادية والمعرفة والهدى وحرية الاختيار...) وهو الذي وهبها للعبد وبدونها لا يستطيع العبد فعل شيء. والله قادر على تجريد عبده ومخلوقه من جميع هذه الإمكانات أو بعضها في أي لحظة، وقادر على أن يوفقه إلى اختيار ما يحقق له النجاح أو الفوز. بيد أن الله منح المخلوق المكلف حرية القيام بفعل يختاره بنفسه، دون إكراه من الله الذي قد علم مسبقا ما سيختاره هذا المخلوق. وهو فعل يقوم به المخلوق باختياره دون أن يخرج عن الإرادة الكونية للخالق أو مشيئته. وقد يكون ما يفعله المخلوق مما يحبه الله أو مما يكرهه وفيه مخالفة لإرادته الشرعية.

هل حرية الاختيار مطلقة:

لقد تبين مما سبق أن الله قد منح المخلوق المكلف حرية الاختيار، وأن هذه الحرية هي مما جعلته مسؤولا عن سلوكه. فهل هذه الحرية مطلقة بمعنى أنها تؤثر على جميع أقواله وتصرفاته؟

للإجابة عن هذا السؤال يقول شعراوي بأن الإنسان فيه شيء من صفات الجماد، والنبات، والحيوان ويتميز عنها بالقدرة على التفكير.

وهو فيما يخص مكوناته الثلاثة الأولى مسير. فهناك أشياء تحدث لـــه أو يقوم بها جسمه بطريقة تلقائية -وغالبا بدون وعيـــه- حســـب نظـــام تلقائي، وليس من مصلحة الإنسان التدخل فيه إلا مضطرا لإصلاحـــه من خلل طرأ عليه بســـبب متعمد أو غير متعمد. ومن هذه الأنظمـــة نظام الجهاز الهضمي، ونظام التنفس.(١٤٢)

وليس هذا فحسب، بـــل إن حريـــة الاختيـــار الـــتي منحـــها الله للمخلوقات المكلفة ليست مطلقة. فالإنسان مثلا ليس مخيرا في كونـــه يوجد أو لا يوجد، ويمر بمراحل أو قد يتعرض لحالات في حياته يكـــون فيها فاقدا لهذه الحرية. فعندما أراد عمر بن الخطاب -رضي الله عنـــه- رجم مجنونة زنت قال له علي بن أبي طالب -رضي الله عنـــه: " أمـــا علمت أن القلم رفع عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حـــتى يـــدرك، وعن النـــائم حتى يســـتيقظ."(١٤٣) ومن وهـــب المخلـــوق حريـــة الاختيـــار أو القدرات المختلفة قادر على تجريده منـــها في أي وقـــت. ولعل هذا معنى قوله تعـــالى: {ومـــا تشـــاؤون إلا أن يشـــاء الله رب العالمين}(١٤٤) فالله الذي خلق الإنسان وخلق قدراته (مثلا، قدرته على حركة أعضائه والنطق ...) ومنحه حرية الاختيار قادر على أن يجـــرده من بعض الأسباب التي يحتاج إليها لفعل أي شيء. بل الله قادر علـــى تجريده من جميع الأســـباب في أي لحظة. ولكـــن إن منـــح الله هـــذا

---

(١٤٢) شعراوي ص ٣٧-٤٣.

(١٤٣) البخاري: الحدود، لايرجم المجنون.

(١٤٤) التكوير: ٢٩.

المخلوق القدرة وترك له الخيار فإن العبد هو المسئول عن عاقبة فعله واختياره.

وقد يتعرض الإنسان لظروف مؤلمة، دون أن يكون هو سببا في وجودها باختياره، ولكن بسبب عوامل خارجة عن إرادته. فقد يتعرض للظلم من مخلوقات مكلفة أخرى. وقد يكون مصدر هذه الظروف المؤلمة مخلوقات غير مكلفة. ويحاول هذا الإنسان قصارى جهده تغيير هذه الظروف دون جدوى. ولكن الغالب على مثل هذه الظروف المؤلمة التي لم يكن سببا في وجودها أنها مؤقتة، تزول ويعقبها بالنسبة للمؤمن الصابر خير، أو تستمر معه طوال حياته ليجد المكافأة المجزية في الآخرة. فهي في صالحه دائما، ولكنه قد يعجز عن إدراك حقيقتها فتكون مصدر ألم له في وقتها. ولو أدرك المخلوق المكلف حقيقتها وآمن حق الإيمان بما وعد الله به الصابرين لكانت سببا في سروره. فقد تكون تلك تضحية صغيرة للحصول على سعادة عظيمة في الآخرة أو في الدنيا والآخرة.

ولو راجع العبد حياته لوجد كثيرا من هذه الحالات. فكم من مرة تمنى فيها العبد أشياء وشقي في حينها لأنه لم يتمكن من تحقيقها. ولكنه فيما بعد شكر الله على أن ما تمناه لم يتحقق. وهذا فقط على مستوى الحياة الدنيا المؤقتة ومكافأتها مؤقتة. فكيف بالمكافآت الأبدية في الحياة الخالدة؟ فالتضحية قد تكون شرطا للحصول على سعادة مؤقتة في الدنيا، أو سعادة أبدية في الآخرة أو فيهما معا. وتأكيد ذلك في قوله تعالى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئا

وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.} (١٤٥)

وليس من المستغرب أن تكون حرية الاختيار سببا في التكليف والمحاسبة. فليس أدل على غلاء حرية الاختيار عند المخلوقات المكلفة مثل دلالة الحروب. فلو استعرضنا جميع الحروب التي جرت وتجري على الأرض ويضحي المخلوق المكلف فيها بنفسه وأهله وولده وماله، لوجدنا أنها نشبت بسبب الصراع على "الحرية" ومنها حرية العبادة. وحتى الصراع بين إبليس وأعوانه وآدم عليه السلام ومن تبع خطاه (الصراع بين الخير والشر) أصله رفض إبليس التنازل عن شيء من حريته وكبريائه بالسجود لآدم عليه السلام. وبهذا اختار العصيان والإصرار عليه، بدلا من طلب المغفرة، كما فعل آدم وحواء عليهما السلام.

ولو سألنا أي مخلوق مكلف: هل تبيع حريتك وترضى بالتبعية الكاملة نظير عدم محاسبتك؟ فإن الإجابة الطبيعية هي لا.

---

(١٤٥) البقرة: ٢١٦.

الفصل الثالث

الاختبار والمحاسبة والجزاء

مادام الجن والإنس مخلوقات مكلفة فإنه لابد أن يحاسبوا على النعم التي ميزهم الله بها عن المخلوقات الأخرى. وسيتم الحديث في هذا الفصل عن الاختبار المتقن، وعن محاسبة الأعمال، وعن المكافآت والعقوبات.

الاختبار المتقن:

لما كان الأفراد من المخلوقات المكلفة يختلفون من حيث الإمكانات والوسائل ، فمن الطبيعي أن يكون الاختبار قادرا على قياس كافة الحالات التي تتروام بين الوسائل الموجبة والسالبة، أي يتراوح بين النعم الدنيوية الوفيرة من جهة، والحرمان الشديد منها (الابتلاءات) من جهة أخرى. ولعل الشكل التالي يوضح الفكرة بصورة أفضل:

خير وفير ---:---:---|---:---:--- حرمان شديد

وكما هو واضح من الشكل هناك درجات متفاوتة بين الخير الدنيوي الوفير والحرمان الشديد. ومن أبرز النعم التي تتدرج لدى مختلف الأشخاص من حالة الوفرة إلى حالة الندرة أو الانعدام: العلم

والحكمة، السكينة النفسية والاطمئنان، والسلطة والجاه والأولاد، والمال والثراء، والعمر والصحة. وذلك إضافة إلى النعم الأساسية: العقل والهدى وحرية الاختيار.

ويندر أن تجتمع كل هذه النعم بوفرة عالية عند شخص محدد أو أن تنعدم كل هذه النعم عند شخص محدد. فالغالب أن معظم الناس لديهم بعض هذه النعم بوفرة نسبية، ويحرمون من البعض الآخر بدرجة نسبية.

ومن هذه النعم ما يمكن في -بعض الحالات- اكتسابها بسهولة ودون تعب مثل المال والثراء، والجاه والسلطة، حيث يمكن اكتسابها بالهبة والوراثة. ومن هذه النعم ما لا يمكن -في جميع الحالات- اكتسابها إلا بالمجهود الشخصي وربما بالعناء والتعب، مثل العلم والحكمة والصبر. ومن النعم ما هي مضمونة بالفطرة مثل القدرة على التنفس والأكل والشرب والحركة... أما النعم المرتبطة بالتكليف فهي مضمونة بدرجة كافية لكل مخلوق مكلف.

ويتمثل الاختبار الرباني في طريقة تعامل المخلوق المكلف مع الحالات المختلفة التي تتدرج بين النعم الدنوية الوفيرة وحالة انعدامها. فالله سبحانه وتعالى يقول: {وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم؛ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم.}(١٤٦) فالمفروض أن يتعامل المخلوق المكلف مع هذه النعم بطريقة تحقق العبودية والعبادة لله وحده، حسب هدى الله

---

(١٤٦) الأنعام: ١٦٥؛ وانظر الملك: ٢.

وشريعته، حيث يقول تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}(١٤٧) ويقول تعالى: {وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض؛ إن الله لا يحب المفسدين.}(١٤٨) فالآية تؤكد أن الأصل هو ابتغاء الآخرة، وأما عدم نسيان نصيب الدنيا فلأن الدنيا مطية الآخرة ولابد من الوفاء بحقوقها التي حددها رسول رب العالمين بما نزل عيه من الوحي وبسنته.

وجميع حالات الوفرة في نعم الله وحالات ندرتها أو انعدامها هي عملات صعبة للمخلوقات المكلفة. وعلى المخلوق المكلف أن يستثمرها ويسخرها لتحقيق الحد الأدنى من النجاح أو الفوز بدرجات عالية. فالله سبحانه وتعالى يقول: { كل نفس ذائقة الموت. ونبلوكم بالشر والخير فتنة، وإلينا ترجعون}(١٤٩) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن. إن أمره كله خير. وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له."(١٥٠)

ومن هذا القبيل أن المسلم قد يتعرض إلى المكروه صغيرا أو كبيرا دون أن يكون له ذنب ولأسباب خارجة عن إرادته. فهذا رصيد له

(١٤٧) الذاريات: ٥٦.

(١٤٨) القصص: ٧٧.

(١٤٩) الأنبياء: ٣٥؛ وانظر العنكبوت: ٣٢؛ وابن تيمية، مجموع ج٨: ٢٠٩-٢١٠.

(١٥٠) مسلم: الزهد، المؤمن أمره.

مستقبلي تسوى به بعض حساباته في المستقبل أو تستثمر له ليضمن النجاح أو الفوز في الاختبار.

والخير والشر، أو النعم الدنيوية والحرمان الدنيوي مثل العملات الصعبة العالمية ليس على مستوى الدنيا فحسب، بل على مستوى الدنيا والآخرة. وعلى المخلوق المكلف أن يحسن استثمارها بزيادة حسناته أو سداد سيئاته. فالله سبحانه وتعالى يقول: {إن الحسنات يذهبن السيئات...}(١٥١) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة؛ ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته. فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار."(١٥٢)

وعموما يلاحظ أنه كلما زادت حالة الوفرة -عند المخلوق المكلف- في النعم تزداد المسؤولية أكثر ويشتد الحساب أكثر وتكثر المزالق التي تؤدي إلى الفشل في الاختبار. والأمثلة من القصص القرآنية كثيرة، ولنا في فرعون والنمرود وقارون عبرة. وأما الحالة المقابلة وهي حالة الابتلاءات الشديدة فتحتاج إلى عزيمة شديدة وهمة عالية، ولنا في قصص الأنبياء أسوة. أما الحالات المتوسطة فهي أقل مسؤولية وأخف حسابا، وأميلها إلى حالة الانعدام أو الندرة أهونها اختبارا. فالرسول صلى الله

---

(١٥١) هود: ١١٤.

(١٥٢) مسلم: البر، تحريم الظلم.

عليه وسلم يقول: "اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يارب ماالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار يعني أوثرت بالمتكبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي".(١٥٣) ويقول أيضا: "اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء..."(١٥٤)

والاختبار ليس سهلا كما يتبادر إلى الذهن فقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه "حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره." أو حفت في رواية أبي نعيم.(١٥٥) ففي كثير من الحالات على الإنسان أن يختار بين السعادة المؤقتة المحسوسة في الدنيا أو السعادة الدائمة الموعودة المؤجلة في الآخرة. ومن هذه الحالات تنافس الناس على حطام الدنيا والمظاهر الدنيوية بدلا من التنافس على في الآخرة. وذلك مع أن الله تعالى يقول: {كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين. وما أدراك ما عليون. كتاب مرقوم. يشهده المقربون. إن الأبرار لفي نعيم على الآرائك ينظرون. تعرف في وجوههم نظرة النعيم. يسقون من رحيق مختوم. ختامه مسك. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون}.(١٥٦) وفي جميع الأحوال على

---

(١٥٣) البخاري: التوحيد، إن رحمة الله.

(١٥٤) البخاري: الرقاق، فضل الفقر؛ وانظر الرقاق لفتنة المال وفضل ضعف الحال.

(١٥٥) البخاري، الرقاق، حجبت.

(١٥٦) المطففين: ١٨-٢٨.

المخلوق المكلف أن يختار بين الحق المر ودعاته القلة، وبين الباطل عذب المذاق وأعوانه الكثر.

والقضية ليست قضية التضحية بإغراءات السعادة العاجلة لقاء السعادة الآجلة رجاء النجاح في الاختبار، أو مضاعفة الجهود المبذولة للفوز بأعلى الدرجات في الاختبار فحسب. ولكن القضية أيضا قضية الصمود أمام جهود إبليس وأعوانه من الجن والإنس الذين يعملون ليل نهار على إغراء المخلوقات المكلفة للتفريط في الأمانة، وسوء استعمال ما وهبها الله إياه من وسائل للنجاح في الاختبار أو الفوز فيه.

ولعل من أكثر صعوبات هذا الاختبار ما يتمثل في الصراع بين الأمل والأجل. فكثيرا ما يسخر الإنسان ما وهبه الله من نعم في الحصول على مزيد من أسباب السعادة العاجلة قائلا لنفسه: لا يزال هناك متسع من الوقت للعمل للسعادة في الآخرة، فيعاجله الأجل على غير استعداد منه. بل قد يعمل -مثلا- على كسب مزيد من الثروة أو الشهادات أو السلطة -ولو بطرق محرمة- موهما نفسه أو ممنيا نفسه بأنه سيعيش لكي يسخر هذه الثروة أو الشهادات أو السلطة التي يسعى للحصول عليها اليوم في سبل الخير غدا، عندما تكبر، حتى يكون مردودها من الأجر أكبر.... ولكن الأجل قد يباغته فتذهب جهوده هباء منثورا. وهذا مصداق قوله تعالى: { ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون. وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.}(١٥٧)

---

(١٥٧) الحجر: ٣-٥؛ وانظر البخاري: كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله.

والحد الفاصل بين النجاح والفشل يتمثل في قوله تعالى: { إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.}(١٥٨) والنجاح يتمثل في قوله تعالى: { فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز.}(١٥٩)

والعبد عندما يعمل لاجتياز الامتحان لا يأتي بشيء جديد، لم يكن موجودا ولكنه يختار من الوسائل المادية والمعنوية التي خلقها الله ومنحه إياها. وهو يسخر هذه الوسائل بالقدرات التي خلقها الله له. وهو يقوم بكل تلك الجهود بإذن من الله أو بإذن منه وعونه، ليصل في النهاية إلى أشياء هي من خلق الله، كما تم بيان ذلك عند الحديث عن القضاء.

والعبد عندما يفشل في الامتحان لا يأتي بشيء من العدم ولكن يختار من الوسائل المادية والمعنوية ليفعل شيئا اختاره بنفسه مما خلقه الله ومكنه منه ليختبره.

المحاسبة على الأعمال:

عندما نتحدث عن المحاسبة على الأعمال لابد أن ندخل في حساباتنا الخير الذي نستمتع به في الدنيا، والجهود التي نبذلها في الدنيا، والخير الموعود به في الآخرة. فالمسلم بحق يدرك أن الدنيا إنما هي مزرعة للآخرة وليست هي الهدف النهائي بأي حال من الأحوال.

---

(١٥٨) النساء: ٤٨، ١١٦.

(١٥٩) آل عمران: ١٨٥.

فالله سبحانه وتعالى يقول: {وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين.}(١٦٠) ويقول تعالى: إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يكون حطاما، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين ءامنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.}(١٦١)

وحقيقة أخرى يجب أن تكون في الذهن هي أن الأعمال الصالحة التي نستحق بها المكافأة هي هبة من الله لنا. فلولا أن الله أقدرنا على عملها بما منحنا من وسائل وقدرات وهيأ لنا من إمكانات وفرص لما كان في مقدورنا القيام بأي عمل. ولعل المثال التالي على المستوى البشري يوضح هذه الحقيقة بطريقة أفضل.

افترض أنك تريد تشجيع ابنك على المحافظة على الصلوات في أوقاتها وعلى الاجتهاد في دراسته لينفع نفسه مستقبلا، فوعدته بمكافأة في نهاية العام ما دام محافظا على الصلوات في أوقاتها وحصل على درجات عالية في امتحاناته. والأصل أن يحافظ الابن على الصلوات بدون الحاجة إلى مكافأة لأنه يؤدي واجبا يلزمه، والأصل أيضا أن يجتهد

---

(١٦٠) القصص: ٧٧.

(١٦١) الحديد: ٢٠-٢١؛ وانظر مثلا البخاري، كتاب الرقاق.

الابن لينفع **نفسه** في المستقبل، ولاسيما إذا كان الأب ليس في حاجة إلى مساعدة منه. فالأب صاحب منة على الابن ابتداء حيث وعده بشيء لا يلزم الأب؛ وهو صاحب منة عليه إن وفى له بوعده.

وإذا كانت المكافأة أعظم بكثير مما نقوم به من أعمال فإن المنـــة تكون أعظم. والجنة وما فيها أعظم من أي عمل يقوم بـــه المخلـــوق المكلف.(١٦٢) ولهذا يقول الرسول صلى الله عليـــه وســـلم: "ســـددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة وإن أحب الأعمـــال أدومهـــا وإن قل." وفي رواية أخرى يقول: "لن ينجي أحـــدا منكـــم عمله. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنـــا إلا أن يتغمـــدني الله بمغفرة ورحمة."(١٦٣) وهذا يعنى أن الإنســـان لا يدخل الجنـــة بعملـــه فقط. وذلك لأن المكافأة بالجنة مكافأة أعظم من أي عمل يمكن أن يقوم به الإنسان. ولأنه لولا النعم الكثيرة التي أســـبغها الله علـــى المخلـــوق المكلف من وسائل مادية ومعنوية، منها العقل والهدى وحرية الاختيار لما تمكن من القيام بما قام به من عمل.

وعذاب الله أيضا شديد لمن يضيع جميع فرص النجاح في الاختبار، ولاسيما لمن يتجاوز الحد الفاصل، أي الشرك بالله فمصيره التخليـــد في النار، وذلك لأن الله قد أخذ الميثاق من بني آدم على عبادته، حيث يقول تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى. شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنـــا

---

(١٦٢) انظر مبحث المكافآت في الآخرة في هذا الكتيب.

(١٦٣) البخاري: الرقاق، القصد والمداومة.

عن هذا غافلين.}(١٦٤) كما أن الأصل أن تعبد المخلوقات خالقها، وعليها أن تستعمل ما منحها الله من إمكانات ومنها حرية الاختيار لأداء هذا الواجب. فالله سبحانه وتعالى يقول: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.}(١٦٥) وزودهم بالهداية لتذكرهم بهذا العهد وهذا الواجب ومنحهم نعمة العقل وحرية الاختيار. ومع كل هذا فإن الله رحيم في محاسبته لعباده فيما دون الشرك، ويعطي فرصة كافية للتوبة من المعصية مهما كانت عظيمة.

الرحمة في المحاسبة:

إن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد رحمة الله وحلمه في محاسبة مخلوقاته المكلفة كثيرة لا يمكن حصرها في هذا الكتيب، ولعل الحديث النبوي التالي يكفي لإعطاء صورة واضحة لهذه الرحمة والحلم الرباني. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يقول الله تعالى: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل..."(١٦٦)

كما أن العبد لا يحاسب على أقوال وأفعال قام بها وهو فاقد للعقل أو الهداية أو حرية الاختيار، حتى لو كان هذا القول ظاهره الردة. فقصة

---

(١٦٤) الأعراف: ١٧٢.

(١٦٥) الذاريات: ٥٦.

(١٦٦) البخاري: الرقاق، صفة الجنة والنار.

عمار بن ياسر الذي أعلن الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم تحت وطأة التعذيب الشديد معروفة. والإعفاء من المحاسبة صريحة في قوله تعالى: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم.}(١٦٧)

فالنية الحسنة مع بذل الجهد كافية لحصول العبد على الإعفاء من المحاسبة. بل النية كافية لأن يكسب العبد حسنات، وإن لم ينفذ نيته، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتب الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة."(١٦٨)

ولكن الله لا يقبل العمل الذي يكون في ظاهره لله سبحانه وتعالى وفي الحقيقة هو لنيل إعجاب المخلوقين أو لنيل رضاهم. ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرء مانوى."(١٦٩) بل إن الله قد يتجاوز عن كثير من السيئات تفضلا، حيث يقول تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم،

---

(١٦٧) النحل: ١٠٦. وانظر سورة النور: ٣٣. وابن تيمية، مجموع ج٨: ٤٣٧-٥١٥.

(١٦٨) البخاري: الرقاق، من هم بحسنة، وانظر الطلاق، الطلاق في إغلاق.

(١٦٩) البخاري: بدء الوحي، الأعمال بالنيات.

ويعفوا عن كثير}.(١٧٠) ويقول تعالى: {والذين ءامنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء}(١٧١) وبعبارة أخرى قد يحصل الأبناء والآباء على سعادة إضافية مجانية بسبب صلاح الآباء.

وليس هذا فحسب، بل الله أحرص على هداية العبد من نفسه، ويفرح لطاعة العبد وتوبته فرحا شديدا. فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عن ربه: "أنا عند حسن ظن عبدي ... وإن تقرب مني شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة."(١٧٢) ويقول صلى الله عليه وسلم أيضا: "لَله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال أرجع إلى مكاني. فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده." ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى "لما خلق الخلق كتب في كتابه: إن رحمتي تغلب غضبي."(١٧٣)

---

(١٧٠) الشورى: ٣٠.

(١٧١) الطور: ٢١.

(١٧٢) البخاري: التوحيد، ويحذركم الله؛ وانظر مسلم: الذكر والدعاء، الحث على ذكر الله، فضل مجالس الذكر كله؛ وابن القيم ص ١٠٥.

(١٧٣) البخاري: الدعوات، التوبة.

ومما يدل على شدة فرح الله بتوبة عبده أنه يبدل سيئاته بحسنات، إذ يقول تعالى: {... إلا من تاب وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. وكان الله غفورا رحيما}.(١٧٤)

ويلاحظ أن المحاسبة ليست مبنية على الإنجاز، ولكن على الجهد المبذول في ضوء الإمكانات المتوفرة. فكل مخلوق مكلف تتوفر له نوعان من الإمكانات:

أ - الإمكانات الفطرية والموروثة. وهذه تنقسم إلى نوعين فرعيين:

١) إمكانات فطرية مثل العمر، والقوة العضلية والعقلية والنفسية...

٢) إمكانات موروثة مكتسبة مثل أن يكون من أسرة غنية أو مسلمة أو ملتزمة بالتعاليم الإسلامية، أو متعلمة... فيستفيد مما يكتسبه منها. ولا فضل لهذا المخلوق فيها.

ب - إمكانات يوجدها الفرد بنفسه وحسب جهده، وذلك باستثماره الإمكانات الفطرية والموروثة التي وهبها الله له دون جهد منه.

وتكون المحاسبة النهائية بقسمة المجهود الذاتي الذي يبذله الفرد على الإمكانات التي توفرت له أو أسهم في توفيرها. فقد لا يعيش الإنسان مثلا مدة طويلة وربما نشأ في بيئة غير مسلمة، ومع هذا فإن الفرصة أمامه مفتوحة لمنافسة من قد يعيش طويلا وتوفرت له إمكانات فطرية وموروثة أفضل بكثير. وذلك لأنهما على الأقل سيتساويان في النهاية إذا بذل كلاهما أكبر ما عندهما من جهد. ولا يفضل الثاني على الأول

---

(١٧٤) الفرقان: ٧٠.

بسبب تفوقه في الإمكانات الفطرية والموروثة. وذلك على الرغم من كون ما ينجزه الثاني سيكون -بالتأكيد- أكبر مما سينجزه الأول.

ويوضح هذه الفكرة ما شرعه الله في طريقة حساب الزكاة. فهناك من لا تجب عليه الزكاة وهناك من تجب عليه الزكاة. ومن تجب عليه الزكاة تحسب عليه في ضوء نسبة مئوية ثابتة، هي اثنتان ونصف في المائة. والفرد يستطيع أن يزيد من نسبة الزكاة بحسن استثماره للإمكانات الفطرية والموروثة، والتقليل من الصرف عموما. فهذا سيؤدي إلى زيادة ما يوفره وبالتالي ما يزكيه. ولكن الزكاة ليست سوى الحد الأدنى لما يدخره الإنسان للآخرة. فهناك فرصة أخرى قد تكون بديلا أفضل لزيادة حجم مدخرات الآخرة وهو الإنفاق في سبيل الله (الصدقة). فأجرها عظيم غير محدود إذ يقول تعالى: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم}(١٧٥) فالنفقة أربعة أنواع:

١ - نفقة في أمر محرم تحقق للمخلوق المكلف متعة دنيوية ولكن تكون سببا في عقوبته في الآخرة.

٢ - نفقة تحقق للإنسان متعة دنيوية فقط وهي ما يكون زائدا عن الحاجات الأساسية ومباحة.

٣ - نفقة تندرج ضمن الحاجات الأساسية بالنسبة للفرد ومسؤولياته. ويؤجر عليها في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١٧٥) البقرة: ٢٦١.

٤ - نفقة في سبيل الله خالصة قد تحرمه نوعا أو درجة من المتع الدنيوية العاجلة، ولكن ليؤجر عليها في الدنيا آجلا وفي الآخرة أو في الآخرة فقط.

وصحيح أن الصدقة تكون على حساب حجم الزكاة ولكن تعوضها بطريقة أكثر ضمانا. فليس هناك من يضمن عمره أو صحته أو... حتى ينتظر إلى أن يأتي وقت الزكاة وقد كثر ماله وكثرت زكاته.

وهذا منتهى الرحمة والتسامح والعدل في المحاسبة ولاسيما مع الإمهال. ومن كانت هذه صفاته فإنه لا يعذب ولا يخلد عبده في النار إلا لأمر عظيم، مثل خيانة العهد ونكران نعم الله وتجاهل جميع جهود التذكير وتضييع جميع فرص التوبة. فمن يخون العهد وينكر نعم الله ويتجاهل جميع جهود التذكير ويضيع جميع فرص التوبة يستحق أن يتوعده الله بأن يملأ به وبأمثاله جهنم.(١٧٦)

الإمهال:

يقول تعالى: {ولو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب}(١٧٧) ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "أعذر الله إلى امريء أخر أجله حتى بلغه ستين سنة"(١٧٨)

---

(١٧٦) أنظر الأعراف: ١٠-١٨؛ هود: ١١٧-١١٩؛ السجدة: ٦-١٣؛ ص: ٧١-٨٥.

(١٧٧) الكهف: ٥٨.

(١٧٨) البخاري: الرقاق، من بلغ ستين.

بل أكثر من هذا يعطي الله العبد فرصة للنجاة لآخر لحظة، حيث يقول الرسول صلى الله عليه وسلم "إن العبد ليعمل -فيما يرى الناس- عمل أهل الجنة، وإنه لمن أهل النار . ويعمل -فيما يرى الناس- عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمال بخواتيمها".(١٧٩) فالعبرة بما ينتهي عليه الأمر في النهاية. ولتوضيح هذه الحقيقة وأنها في صالح العبد نضرب المثال التالي:

إن العمر يشبه المدة المحددة للامتحان مع بعض الفوارق، ومنها أن الطالب يحق له إنهاء امتحانه قبل الموعد النهائي. كما أن الموعد النهائي معروف عند الطالب. أما بالنسبة لاختبار الحياة الدنيا فإن الموعد النهائي غير معروف لدى العبد، ولا يحق له محاولة إنهاء حياته متى أراد. ولعل ذلك لكون الاختبار جديرا بالمكافأة أو الجزاء الأبدي، ولأن العمل القليل جدا يكفي لتحديد المصير.

وافترض أنك مدرس وكنت تصحح ورقة طالب أحسن الإجابة في البداية؛ ولكنه في نهاية الأمر شطب عليها وبدأ في كتابة إجابات خاطئة فهل تعطيه الدرجات على آخر إجابة انتهى عندها الاختبار أو على الإجابات التي شطبها؟ قد يكون السبب في شطب الطالب لإجاباته الصحيحة استهتارا بالوقت وتسلية. وقد يكون السبب جهله بالإجابات الصحيحة نتيجة لتقصيره في الدراسة. ومهما يكن السبب فالغالب أنك ستعطيه الدرجة التي يستحقها على الإجابة التي ثبت عليها في نهاية الاختبار.

---

(١٧٩) البخاري: الرقاق، الأعمال بالخواتيم؛ وانظر ابن تيمية، مجموع ٨: ١٤٠.

وافترض أيضا أنك اشتريت سيارة من أحد الأشخاص بثمن محدد تدفعه عندما يسلمك السيارة في المكان المتفق عليه. ولكن بسبب إهماله لم تصل السيارة في المكان المحدد لتسليمها إلا في حالة محطمة. فهل تدفع له الثمن المتفق عليه أو تدفع له قيمة تناسب حالتها عندما أوصلها إلى الموقع المحدد، إذا رغبت في شرائها؟

الواقع المحتمل وقوعه:

كثيرا ما يخطط الإنسان لأشياء في المستقبل أو يقوم بتصورات مستقبلية فيقول مثلا: "لو أن عندي مالا يكفي تكاليف الحج لحججت." وقد يقول آخر أو يتمنى من كل قلبه: "لو أن لي سلطة على فلان (إنسان قهره في شيء وربما بحق) لانتقمت منه شر انتقام."

ويصادف أن من كان يتمنى الحج، يمتلك في يوم من الأيام تكاليف الحج. فيحج بها كما كانت نيته أو تخطيطه أو أمنيته. ولكن أيضا من المحتمل أن تتوفر لديه تكاليف الحج، ولكن رفيق سوء قد يزين له صرف المبلغ على المتع المحرمة، فيطاوعه وينفذ ذلك.

ويصادف أن يمتلك من كان يتمنى الفرصة للانتقام تلك الفرصة للانتقام. وقد ينفذ أمنيته وينتقم ممن كان سببا في عقوبة يستحقها، فيظلم إنسانا. وقد يعفو عنه.

وافترض أنك كنت في الحالة الأولى قد علمت بأمنية الشخص الأول في الحج ولديك قدرة في منحه المال المطلوب، ووعدته بذلك. بيد أن صديقا ممن تثق به ويعرف ذلك الشخص معرفة جيدة أكد لك بأن ذلك

الشخص لو حصل على المبلغ المطلوب فإنه لن يحج به ولكن سيصرفه على المتع المحرمة. فهل تمنحه تكاليف الحج حسب وعدك؟

وافترض أنك في الحالة الثانية أردت أن تمنح الشخص الثاني سلطة، بناء على وعد، أو لقاء عمل استحق به تلك السلطة. ولكنك علمت من مصادر تثق بها أن الاحتمال كبير في أن هذا الشخص سوف يستخدمها في الانتقام ممن يكره أو سبق أن عاقبه على جرائم ارتكبها. فهل تمنحه هذه السلطة؟

إني على يقين بأن الإنسان العاقل ستكون إجابته عن السؤالين السابقين بالنفي، أي أن قراره سيكون هو الامتناع عن منح المبلغ الموعود به للأول، أو السلطة الموعودة التي تمكن الشخص الآخر من الانتقام لنفسه. وذلك لأنه لا ينبغي تشجيع الغش، والفساد والظلم، بل يجب منع ذلك لأنها أعمال محرمة، وحفاظا على مصلحة من يقوم بالغش أو الظلم وحفاظا على مصلحة المجتمع بأكمله.

الإنسان العاقل يتخذ هذا القرار وليست لديه معلومات مؤكدة مائة في المائة. وأما الخالق سبحانه وتعالى فإن علمه بـ" الاحتمالات جميعها" علم مؤكد مائة في المائة. وبعبارة أخرى، ما نعتبره احتمالا من الاحتمالات، هو بالنسبة لعلم الله عز وجل علم يقيني.

صحيح أن المخلوق في بعض الحالات قد يحيط بجميع الاحتمالات الممكنة ولكنها حالات نادرة. ومثاله لو أردت إجراء قرعة بين سبعة أشخاص فكتبت أسماءهم، كل اسم في ورقة مستقلة فإنك تعلم أن الاحتمالات كلها لا تتعدى سبعة بالنسبة للسحب مرة واحدة.

وبعبارة أخرى إذا أردت أن تجري عملية سحب واحدة فإنه ليس هناك سوى سبعة أسماء (سبعة احتمالات أو خيارات) يمكن السحب منها. فأنت قد أحطت بجميع احتمالات عملية السحب هذه. ولكن كم من الأحداث التي ستحدث في المستقبل أو الأشياء التي تقع يحيط المخلوق المكلف وغير المكلف بجميع احتمالاتها؟ بالتأكيد محدودة جدا.

أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فليس هناك احتمال إلا وقد أحاط الله به علما، ويعلم في الأزل علم اليقين الاحتمال الذي سيقع. وما دام الأمر كذلك فهل يكون من الظلم أن يمنع الله العبد من ارتكاب الجريمة التي يعلم الله علم اليقين بأنها ستقع إذا توفرت ظروف المحاسبة العادية وعلى رأسها توفر العقل والهداية وحرية الاختيار اللازمة؟

وهذه الحقيقة بعينها تفسر قتل العبد الصالح للغلام الذي لم يبلغ سن الرشد بعد، عندما كان موسى عليه السلام في صحبته.(١٨٠) وذلك لأن الله قد أطلعه على ما سيفعله الغلام إذا بلغ رشده. ويلاحظ أن موت الغلام بالقتل كانت رحمة بوالديه ورحمة به أيضا فالموت في هذه السن عصمة له من ارتكاب ما كان سيرتكبه ويحاسب عليه.

ومن الواقع المحتمل أولئك الذين ماتوا في الفترة، والمجنون، إضافة إلى الطفل. وهؤلاء يعقد لهم اختبار يوم القيامة إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالهالك في الفترة، والمعتوه، والمولود فيقول الهالك في الفترة لم يأتني كتاب ولا رسول، ويقول المعتوه أي رب لم تجعل لي عقلا

---

(١٨٠) الكهف: ٧٤، ٨٠؛ وانظر تعليق ابن تيمية ج٨: ٦٩.

أعقل به خيرا ولا شرا، ويقول المولود أي رب لم أدرك العمل. قال فيرفع لهم نار فيقال لهم ردوها أو قال ادخلوها فيردها من كان في علم الله سعيدا أن لو أدرك العمل. قال ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا لو أدرك العمل. فيقول تبارك وتعالى إياي عصيتم فكيف رسلي بالغيب؟(١٨١)

وفي جميع الأحوال فإن الله قادر على أن يدخلهم الجنة بدون اختبار، ويؤيد ذلك المصير المرجح للمولود الذي يموت وهو لا يزال على الفطرة و لم يدرك العمل. فقد ورد في حديث نبوي طويل يتحدث فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن رؤيا له وما رأى فيها فيقول: "...وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة. قال [الراوي] فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأولاد المشركين..."(١٨٢) وهو الراجح. وأما الروايات الأخرى وقول صلى الله عليه وسلم "الله أعلم بما كانوا عاملين"(١٨٣) عند سؤاله عن مصائر أولاد المشركين، فيفهم على أنه من باب التحذير من الجزم بمصير أحد في الآخرة بدون علم من الله.(١٨٤)

---

(١٨١) ابن القيم، شفاء ص ٣٠؛ وانظر أحمد ج٤: ٢٤ قريبا من معناه.

(١٨٢) البخاري: كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد؛ وانظر العسقلاني لترجيحه وأدلته ج٣: ٢٩٠-٢٩١.

(١٨٣) ابن القيم، أحكام أهل الذمة ص ٦١٩-٦٥٦/٥.

(١٨٤) البخاري: كتاب الجنائز، باب ماقيل في أولاد المشركين.

المكافأة أو العقوبة:

هناك نوعان رئيسان من المكافآت والعقوبات: المكافآت والعقوبات الدنيوية، والمكافآت والعقوبات الأخروية. ولكل منهما تفريعات سيأتي الحديث عنها فيما يلي من المباحث.

المكافآت والعقوبات في الدنيا:

تأخذ المكافآت في الدنيا صورا لا حصر لها، فالله سبحانه وتعالى يقول: {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها}(١٨٥). ومن أمثلة المكافآت الدنيوية ما ورد في قوله تعالى: {ولما رءا المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما}.(١٨٦) فكانت مكافأة هذا الإيمان وهذا التسليم لله نصرهم - بدون قتال يذكر- على الأعداء المهاجمين وعلى الذين نكثوا عهد المسلمين وأظهروا الخيانة، { ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا. وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها، وكان الله على كل شيء قديرا.}(١٨٧)

---

(١٨٥) إبراهيم: ٣٤. (١٤)

(١٨٦) الأحزاب: ٢٢.

(١٨٧) الأحزاب: ٢٥-٢٨.

ومن المكافآت الدنيوية ما يعتبر خيرا بمعيار الدنيا والآخرة. ومثاله زيادة الهداية، حيث يقول تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وءاتاهم تقواهم.}(١٨٨)

ومن المكافآت الدنيوية مثل المال والجاه والسلطان ما قد يعتبر خيرا بمعيار الدنيا، ويقبل أن يكون خيرا أو شرا في الآخرة. فالصحابي أبو ذر رضي الله عنه يقول: "كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال: يا أبا ذر. قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا تمضي علي ثالثة وعندي منه دينار، إلا شيئا أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا -عن يمينه وعن شماله، ومن خلفه- ثم مشى ثم قال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا - عن يمينه وعن شماله ومن خلفه- وقليل ما هم..." وفي رواية أخرى قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرا فنفح فيه يمينه وشماله، وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرا..."(١٨٩)

والسلطة مكافأة ولكن قد تكون سببا في العقوبة في الآخرة إذ قال صلى الله عليه وسلم: "ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة."(١٩٠)

---

(١٨٨) محمد: ١٧.

(١٨٩) البخاري: الرقاق، المكثرون هم المقلون.

(١٩٠) البخاري: الأحكام، من استعى رعية.

ويقول ابن القيم: "وقد ذكر الله سبحانه في غير موضع من كتابه أن الحسنة الثانية قد تكون ثواب الحسنة الأولى وأن المعصية قد تكون عقوبة للمعصية الأولى". ويؤكد هذه الحقيقة بالعديد من الاستشهادات من القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا}(١٩١) وقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}.(١٩٢)

أما العقوبات الدنيوية فقد تكون للإنذار والتحذير، مثاله ما ورد في قوله تعالى: {لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين.}(١٩٣) ومثاله أيضا قوله تعالى: {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون}.(١٩٤)

ومن العقوبات ما يكون للتطهير وتكفير الذنوب. ومثاله قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما يصيب المؤمن من وصب (وجع لازم) ولا نصب (تعب) ولا سقم، ولا حزن حتى الهم يهمه (يغمه)، إلا كفر به عن سيئاته."(١٩٥)

---

(١٩١) العنكبوت: ٦٩.

(١٩٢) الصف: ٥؛ وانظر ابن القيم ص ١٦١.

(١٩٣) التوبة: ٢٥-٢٦.

(١٩٤) الأعراف: ١٦٨.

(١٩٥) مسلم: البر والصلة، ثواب المؤمن فيما يصيبه، وانظر الباب كله.

ومن العقوبات الدنيوية التي يتعدى أثرها إلى الآخرة ما ورد في قوله تعالى: {ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين. يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.}(196) فهؤلاء أصروا على الكفر والضلال فزادهم الله مما يحبون.

وقد تأخذ العقوبة الآجلة هيئة المكافأة والنعمة العاجلة، حيث يقول تعالى: { ذرني ومن خلقت وحيدا. وجعلت له مالا ممدودا. وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا. ثم يطمع أن أزيدا. كلا، إنه كان لآياتنا عنيدا. سأرهقه صعودا.}(197)

المكافآت والعقوبات في الآخرة:

تتميز المكافآت والعقوبات في الآخرة بتنوعها الشديد، وبالاختلاف الشديد في درجاتها، وبأنواعها الفريدة التي لا مثيل لها في الحياة الدنيا، ويعجز العقل البشري عن تصورها. ولعل النصوص المختارة التالية تعطي فكرة تقريبية عن نوع المكافآت والعقوبات التي يحصل عليها من ينجحون في اختبار الحياة الدنيا أو يفشلون فيها.

---

(196) البقرة: ٨-١٠؛ وانظر أيضا تزيين الباطل لمن اختار الباطل، وجعل صدره حرجا لمن اختار الضلال الأنعام: ١٢٠- ١٢٥.

(197) المدثر: ١١-١٧.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فاقرأوا إن شئتم {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين}(١٩٨)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم واصفا فضل نعيم الجنة على نعيم الدنيا: "... ولقاب قوس أحدكم -أو موضع قدم- من الجنة خير من الدنيا وما فيها؛ ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينها، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها -يعني الخمار- خير من الدنيا وما فيها."(١٩٩)

وعن ضخامة المكافأة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا. رجل يخرج من النار حبوا، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب. وجدتها ملأى. فيقول: اذهب فادخل الجنة ، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب. وجدتها ملأى. فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها - أو إن لك مثل عشر أمثال الدنيا- ..."وكان يقول: "ذلك أدنى أهل الجنة منزلة."(٢٠٠)

(١٩٨) البخاري: بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة.

(١٩٩) البخاري: الرقاق، صفة الجنة والنار.

(٢٠٠) البخاري: الرقاق، صفة الجنة والنار.

وهذا يؤكد أن المكافأة تتراوح وتتدرج بحسب اجتهاد العاملين. ليس هذا فحسب بل الدرجات العلى محدودة، لا ينالها سوى القلة، إذ يقول تعالى: {والسابقون السابقون. أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما. وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب. وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعة. إنا أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا. عربا أترابا. لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين.}(٢٠١) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة."(٢٠٢)

ومما سبق يتضح لنا عظم المكافأة في مقابل العمل القليل. بل لا وجه للمقارنة بينهما. فالمكافأة أعظم بكثير مما يستحقه العبد بعمله، ولاسيما أن الخالق هو الذي خلق له الأسباب اللازمة التي استخدمها للقيام بالأعمال الصالحة التي تؤهله للسعادة في الآخرة. والله قادر على أن يجرده منها في أي وقت. ولهذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

(٢٠١) الواقعة: ٧-٤٠.

(٢٠٢) البخاري: التوحيد، وكان عرشه.

"لن ينجي أحـــدا منكم عمله. قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قـــال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة. سددوا وقاربوا..." وقال صلى الله عليـــه وسلم: "واعلمـــوا أن لن يدخل أحدكم عملـــه الجنـــة، وأن أحـــب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل."(٢٠٣)

أما عن العقوبة فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابـــا يوم القيامة لو أن لك مـــا في الأرض من شيء أ كنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئا، فـــأبيت إلا أن تشـــرك بي."(٢٠٤) ولو سألنا ما نوع العذاب الذي يناله أهون أهل النار عذابـــا فإن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أهون أهل النار عذابـــا يـــوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه."(٢٠٥)

إذا كانت المكافات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ألا تستحق أن يبذل المخلوق المكلف كل ما يســـتطيع حـــتى لا تفوته هذه المكافآت؟ إننا نبذل الكثير مـــن الجـــهد، ومـــن المـــال، والصـــحة، والراحة، ونغترب بعيدا عن الأهل والولد، ونخوض الكثـــير من المخاطر للفوز بمتع دنيوية زائلة. أفلا تستحق هذه المتـــع الأخرويـــة الأبدية أن نضحي في سبيل الفوز بها بكل ما في هذه الدنيا من متـــع أو جزءا أكبر مما نبذله؟

---

(٢٠٣) البخاري: الرقاق، القصد والمداومة.

(٢٠٤) البخاري: الرقاق، صفة الجنة والنار.

(٢٠٥) البخاري: الرقاق، صفة الجنة والنار؛ وانظر ابن الأثير ج١٠: ٥١٢-٥٢٠، ٥٣٧-٥٥٧.

وإذا كان أخف نوع من العقوبة يغلي منها دماغ المخلوق المكلف أليس من الحكمة أن يبذل المخلوق المكلف كل ما يستطيع لكي يتجنبها؟ إننا نصرف المبالغ الطائلة وقد نذل أنفسنا ونضحي بأشياء ثمينة من أجل التخلص من المرض أو الآلام الدنيوية المؤقتة. أفلا تستحق مثل هذه العقوبات الأخروية الأبدية أن نضحي من أجل تفاديها بكل ما نملك من إمكانات أو جزءا أكبر مما نبذله؟

الخلاصة والخاتمة

يتضح مما سبق من المباحث أن القضاء هو الأمر الرباني المباشر النافذ حتما، وهو أيضا السنن الكونية التي خلقها الله، أي السبب والنتيجة الحتمية. ومن السنن الكونية تتكون شبكة عظيمة محكمة من الأنظمة التلقائية (الأتوماتيكية) التي تسير هذا الكون بمشيئة الله. فالله سبحانه وتعالى أوجد الكون ويخلق ما فيه ويسيره بقوله كن فيكون (الأمر المباشر) وبالسنن الكونية أو النظم التلقائية التي خلقها. ولا يقع شيء في هذا الكون إلا بإذنه ومشيئته، فهو القاهر فوق مخلوقاته.

أما القدر فإنه العلم الرباني المطلق الذي لا يقيده قيد الزمان أو المكان أو الحواس المحدودة، وكل شيء بالنسبة لهذا العلم المطلق حاضر من حيث الزمان أو المكان والإحاطة التامة به. وقد أمر الله القلم بأن يسجل ما كان وما سيكون من هذا العلم المطلق في اللوح المحفوظ. فلا يقع شيء إلا كما تم تسجيله تسجيل وصف، لا تسجيل حكم. ولكن لا أحد سوى الله سبحانه وتعالى يعرف ما هو مكتوب.

وبهذا يتضح أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يتعارض مع الإيمان بأن الجن والإنس مسؤولان عن الطريقة التي يسخران بها ما أنعم الله به عليهما من نعم لا تعد ولا تحصى. وترتكز هذه المسئولية وهذا التكليف بشكل أساس على نعمة العقل، والهداية، وحرية الاختيار بين الأسباب ذات النتائج الحتمية أو ما نسميه بالسنن الكونية. ولكن يلاحظ أن هذه الحرية التي أنعم الله بها على المخلوق المكلف ليست

مطلقة. فهي مقيدة بمشيئة الخالق المهيمنة عليها هيمنة مطلقة. فالله هو الذي خلق الجن والإنس وجميع المخلوقات وهو الذي منحها النعم التي تستمتع بها وتستثمرها للحصول على السعادة في الدنيا والآخرة، ولاسيما في الآخرة. وهو سبحانه وتعالى قادر على تجريد المخلوقات المكلفة منها متى شاء. وهو الذي خلق الأشياء التي يختار منها، ولا يختار إلا بإذنه تعالى.

ومن الطبيعي أن يترتب على هذا التكليف العادل وجود اختبار متقن. لهذا كانت الحياة الدنيا التي ننعم بها دار ا للاختبار والحياة والآخرة دارا للجزاء. وليست درجات الفرح والحزن المختلفة ودرجات المتعة والألم سوى وسائل هذا الامتحان. فالاختبار المتقن يمكنه تحديد جميع الحالات التي تتراوح بين النجاح الباهر والفشل الذريع. وليست النعم والابتلاءات إلا عملات صعبة يجب أن نحسن استثمارها في الدنيا المؤقتة لنجني ثمارها العظيمة في الحياة الأبدية.

وتتمثل صعوبة هذا الاختبار في أن النعيم المؤقت قد يتعارض مع النعيم الأبدي، وأن طرق الحصول على النعيم المؤقت محاطة بالمغريات والشهوات، وأما طرق الحصول على النعيم الأبدي فمحفوفة بالمكاره. وعلى المخلوق المكلف أن يضحي أحيانا بنعيم الدنيا المؤقت ليفوز بنعيم الآخرة الأبدي، وأن يتغلب على شهواته ويصبر على المكاره حتى يكون من الفائزين في هذا الاختبار.

كما اتضح لنا أن الله عفو رحيم في محاسبته للمخلوق المكلف، يمهله ويمنحه الفرص الكثيرة للتوبة والرجوع إلى الطريق السوي، ولكن لا

يهمله. فقد يغفر الذنوب الكبيرة للمخلوق المكلف ما لم يشرك به أحدا في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ويموت على ذلك؛ وقد يبدل سيئاته حسنات. ولكن لاضمان لأحد فعلى المخلوق المكلف أن يبذل قصارى جهده لينجو من النار ويفوز بالجنة في الحياة الأبدية. وما هو مكتوب في اللوح المحفوظ لا يعلمه إلا الله، فعلى الجن والإنس أن يبذلوا أقصى جهدهم واستطاعتهم، فعليه ستكون محاسبتهم.

ومكافآت الآخرة عظيمة ففي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وعقاب الآخرة شديد لمن يضيع جميع فرص النجاح، ويتجاهل بغرور جميع الإرشادات وكل وسائل التنبيه والتذكير. فأهون أهل النار عذابا من توضع تحت قدميه جمرة فيغلي منها دماغه.

اللهم اجعلنا من المستحقين لجنتك وأجرنا من عذابك وارزقنا التوفيق والإخلاص في النية والقول والعمل. آمين.

مراجع الكتيب

القرآن الكريم.

ابن أبي الدنيا، الحافظ، كتاب الرضى عن الله بقضائه، تحقيق ضياء الحسن السلفي (بومبي: الدرا السلفية ١٤١٠).

ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (ـــــــ : مكتبة الحلواني، ومطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان ١٣٩٢).

ابن تيمية، أحمد، مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي (الرياض: الجامع نفسه ١٣٩٨).

ـــــــ، الاحتجاج بالقدر (بيروت: المكتب الإسلامي ١٣٩٣).

ـــــــ، جامع الرسائل، المجموعة الأولى، تحقيق محمد رشاد سالم (القاهرة: المحقق نفسه ١٣٨٩).

ـــــــ، و محمد بن عبد الوهاب، مجموعة التوحيد (المدينة المنورة: المكتبة السلفية ـــــــ).

ـــــــ، القضاء والقدر، تحقيق وشرح أحمد عبد الرحيم السايح السيد الجميلي (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١١).

ابن القيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تصحيح السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعسالي الحلبي. (القاهرة: دار الفكر ١٣٩٨).

ـــــــ، أحكام أهل الذمة، تحقيق وتعليق صبحي الصالح ط٣(بيروت: دار العلم للملايين ١٩٨٣).

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ط٢ (بيروت: دار صادر ١٤١٢).

أبو حنيفة، النعمان بن ثابت، الفقه الأكبر، شرح محمد بن عبد الرحمن الخميس (الرياض: دار المسلم ١٤١٤).

أرنولد، سير توماس، الدعوة إلى الإسلام: بحث في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين وإسماعيل النحداوي (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠).

الأشقر، عمر سليمان، القضاء والقدر (الكويت: مكتبة الفلاح ١٤١١).

آل محمود، عبد الله بن زيد، الإيمان بالقضاء والقدر على طريقة أهل السنة والأثر (قطر: المحاكم الشرعية والشئون الدينية ١٣٩٦).

أنيس، إبراهيم، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله أحمد ط٢ (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٣٩٢).

بالي، وحيد عبد السلام، وقاية الإنسان من الجن والشيطان (جدة: مكتبة الصحابة ١٤١٢).

البخاري، محمد بن إسماعيل، خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل، تحقيق وتعليق أبو محمد سالم بن أحمد عبد الهادي السلفي، و أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني الأبياني (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي ١٤٠٨).

ـــــــــ، خلق أفعال العباد، تحقيق عبد الرحمن عميرة (الرياض: دار المعارف السعودية ١٣٨١).

بن حيدرة، شيث بن إبراهيم، حز الغلاصم في إفحام المخاصم، تحقيق عبد الله عمر البارودي (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٥).

البوطي، كبرى اليقينات وجود الخالق ووظيفة المخلوق (القاهرة: دار الفكر ١٣٩٥).

جبر، محمد سلامة، القضاء والقدر (الكويت: دار البحوث العلمية ١٩٨١).

جوهري، محمد ربيع محمد، عقيدة القضاء والقدر (ـــــــ: ـــــــــ).

الخطيب، عبد الكريم، القضاء والقدر بين الفلسفة والدين ط ٢(القاهرة: دار الفكر العربي ١٩٧٩).

ـــــــ، مشيئة الله ومشيئة العباد (الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع ١٤٠٠).

الخياط، عبد العزيز، القضاء والقدر (عمان: وزارة الأوقاف والشئون والمقدسات الإسلامية ١٩٧٧).

دار المشرق ، المنجد في اللغة والإعلام ط ٢٦(بيروت: دار المشرق ١٠٧٣).

درويش، أبو الوفاء محمد، القضاء والقدر (بلبيس، مصر: المكتبة الإسلامية ١٤٠٨).

الدسوقي، فاروق أحمد، القضاء والقدر في الاسلام (بيروت: المكتب الاسلامي ١٤٠٦).

الدمشقي، علي بن علي بن محمد أبو العز، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق ومراجعة عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب أرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤١١).
الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، القضاء والقدر (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤١٠).
الرفاعي، محمد نسيب، تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير (حلب: المؤلف نفسه ١٣٩٠).
الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس (بيروت: دار مكتبة الحياة ـــــــ).
زيدان، عبد الباقي، الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان (بيروت: مؤسسة الرسالة ١٤٠٨).
السداوي، محمد متولي إبراهيم، القضاء والقدر وموقف المؤمن منها (القاهرة: مطبعة المدني ١٣٩٧).
السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، الدرة البهية: شرح القصيدة التائية في حل مشكلة القدرية، في العقيدة الاسلامية (عنيزة: مركز صالح بن صالح الثقافي ١٤١٢) ٣-١٤٣-٢-٤.
السليمان، فهد ناصر، (جامع)، مجموع فتاوى ورسائل فضيلة اليخ محمد بن صالح العثيمين (الرياض: دار الوطن للنشر ١٤١١)
شعراوي، محمد متولي، القضاء والقدر، معجزات الرسول، إعجاز القرآن، مكانة المرأة في الإسلام إعداد وتقديم أحمد فراج (القاهرة: دار الشروق ١٩٧٥).
الشنقيطي، محمد الأمين محمد المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن (الرباض: المطابع الأهلية للأفست ١٤٠٣).
الصاغرجي، أسعد محمد سعيد، القضاء والقدر (حدة: دار القبلة ١٤١٢).
صبري، مصطفى، موقف البشر تحت سلطان القدر (القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٥٢).
صخر، الشركة العالمية للإلكترونيات، القرآن الكريم (الرياض: الشركة العالمية للإلكترونيات ـــــ).
صيني، سعيد إسماعيل، قواعد أساسية في البحث العلمي (عمان: مؤسسة الرسالة ١٤١٥).
عباس، محمد يوسف، فهارس في ظلال القرآن: مفتاح كنوز في ظلال القرآن (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٠٧).

عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (بيروت: دار إحياء التراث العربي ١٣٦٤).
العثيمين، محمد صالح، مجموع فتاوى ورسائل، تجميع فهد ناصر السليمان (الرياض: دار الوطن للنشر ١٤١١).
عجاج، محمد محمود، ما هو القضاء والقدر (المؤلف نفسه ١٤١١).
العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ترقيم وتصحيح ومراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب وقصي محب الدين الخطيب (القاهرة: دار الريان للتراث ١٤٠٧).
العقلي، فؤاد خدرجي، الإنسان هل هو مسير أم مخير؟ (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٨٠).
الغرناطي، أبي يحي محمد بن عاصم، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقيق صلاح جرار (عمان: دار البشر ١٤١٠). ثلاثة أجزاء.
الفوزان، صالح فوزان بن عبد الله الفوزان، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإتاء والدعوة والإرشاد ١٤١١).
قطب، سيد، في ظلال القرآن (جدة: دار العلم للطباعة والنشر ١٤٠٦).
قنبس، عبد الحليم محمد، وخالد عبد الرحمن العك، مسألة القضاء والقدر (دمشق: دار الكتاب العربي ـــــ).
المرتضى، الشريف أبو قاسم علي بن الحسن بن موسى، إنقاذ البشر من الجبر والقدر (النجف: مطبعة الراعي ١٩٣٥).
مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٤).
المصري، عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي، كتاب القدر وما ورد في ذلك من الآثار، تحقيق ودراسة وتخريج عبد العيز عبد الله محمد العثيم (ـــــ: دار السلطان ١٤٠٦).
ونسنك، أ. ي، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي (ليدن: مكتبة برايل ١٩٣٦).

قائمة المحتويات